اللنبي: أحب العصافير واحتل القدس

«.... على الجنرال أن يكون مراقباً، ودؤوباً، ولماحاً، ولطيفاً، وقاسياً، وبسيطاً ومتحذلقاً، ولصاً، وفرحاً، وحزيناً، كريماً، وبخيلاً، ومندفعاً، ومحافظاً!».

هذه الكلمات ليست لرجل عسكري. إنها كلمات قديمة لسقراط «لكن الجنرال السير أرشيبالد ويفل اختار هذه التعابير لكي يقدم بها السيرة التي كتبها عن أدموند اللنبي، مارشال القوات الإنكليزية في مصر وفلسطين، والرجل الذي سيلعب واحدا من أهم الأدوار السياسية والعسكرية في تاريخ المنطقة. والجنرال ويفل أيضاً لعب أدواراً كثيرة وظل اسمه يعلو الشوارع والقواعد في ليبية حتى الثورة. لكن اللنبي لم يؤرخ نفسه ولم يترك خلفه مذكرات أو أي شيء من هذا القبيل. فكان أن تولى المهمة، - إلى جانب عدد كبير من الكتاب - أرشيبالد ويفل نفسه، الذي تولى فيما بعد رئاسة أركان الجيوش البريطانية في المنطقة.

إن تاريخ اللنبي هو تاريخ الصراع على المنطقة لا تاريخ العرب... فقد كان على العرب في تلك المرحلة أن يختاروا بين «الانتداب»، أي الشكل الجديد للاستعمار، وبين الاستعمار التركي. الحرية لم تكن خياراً، الحرية قدر سوف يحل فيما بعد. لكن لن يذهب الاستعمار المعلن إلا وقد ترك خلفه الكيان الصهيوني، الدولة العبرية التي كانت تهيأ في الأروقة.

لقد جاء أدموند اللنبي إلى المنطقة وهو يحمل أطناناً من الأوسمة. فقد كانت خلفه عشرات المعارك الكبرى التي أداها لصاحب الجلالة، خصوصاً في جنوب إفريقية وبلاد الزولو. وعندما اشتعلت الحرب الكونية الأولى كان الجنرال الذي ولد في العام 1866 قد أصبح المفتش العام لقوات الفرسان في جيش الإمبراطورية. وقد قاد هذه القوات إلى خطوط الدفاع في فرنسة ثم سجل لنفسه بطولة فريدة في معركة «أراس» الشهيرة.

غير أن أبرز ما في حياة اللنبي بالنسبة إلى العالم العربي، كونه عرف بقائد الحملة على القدس. الحملة طبعاً، ضد الأتراك. وقبل أن نعطي أي تفسيرات عن تلك الحملة، لابد أن نتذكر أن لويد جورج قال لقائد «الجيش الثالث» السابق وهو يوكل إليه المهمة الجديدة: إن «القدس يجب أن تكون هدية الميلاد للأمة البريطانية».

من أجل ذلك، أي من أجل القدس، قال لويد جورج للجنرال اللنبي: «اطلب التعزيزات التي تشاء، إننا نريدها بأي ثمن».

لم يكن هناك هاجس آخر أو مجد أكبر، عندما غادر قطار اللنبي محطة «تشيرنغ كروس» ذات الحجارة الحمراء الواقعة في قلب لندن، في 12 حزيران/يونيو 1917، في طريقه إلى الجبهة المصرية ـ الفلسطينية. وفي ذلك النهار بالذات كان الزعيم التركي أنور باشا يعقد في مدينة حلب اجتماعاً طارئاً لقادة الجبهات التركية في بلاد القفقاز وفلسطين وما بين النهرين، للبحث في الخطط المقبلة عن «المسرح الشرقي» حسب تعبير ويفل. وكانت الخطة التركية آنذاك تقضي بإعادة احتلال بغداد التي كان احتلها الجنرال مود في شهر آذار/مارس السابق. ودب الخلاف في لقاء حلب. وأصر المتصرف جمال باشا (الجزار) على تدعيم جبهة فلسطين قبل أي شيء.

أكمل اللنبي الطريق إلى مصر يرافقه مساعدان والميجور جنرال ج. اس. شيا. ولن يدخل شيا التاريخ، غير أن مجيئه إلى مصر كان يعطي فكرة ما عن طباع اللنبي. فالرجل كان من ضباطه في معركة «أراس». وكان يكثر من الأسئلة والاعتراض على الأوامر، الأمر الذي اضطر اللنبي إلى إبعاده إلى بريطانية. غير أنه عندما استعد للسفر إلى مصر سأله اللورد ديربي وزير الحربية، إن كان لا يمانع في أخذ شيا معه. ولم يتردد في الموافقة.

سافر الرجال أولاً إلى باريس، فروما، ومنها إلى بريندیزي على الساحل الإيطالي ومن هناك ركبوا الطراد البريطاني «بريستول»، فوصلوا إلى الإسكندرية بعد يومين، في 22 حزيران/يونيو. وبعد ذلك بخمسة أيام تولى اللنبي قيادة «قوات الحملة المصرية» متخذاً لنفسه منزلاً في ضاحية «الجزيرة»، وكان أول ما فعله هو البحث عن طاهٍ فرنسي، وقد عثر عليه في شخص رجل كان هارباً من الخدمة العسكرية ويملك مقهىً في الإسكندرية.

وبعد أسبوع من الاستقرار في القاهرة كان شيء من القلق قد دب في الجبهة، وكثير من الرعب في ضباط اللنبي أنفسهم. لن تعود الحياة سهلة أو مسترخية بعد الآن: الياقات يجب أن تكون منشاة، والقبعات حادة، والأكتاف الحمراء حمراء حقاً! وترك الضباط خلفه، واتجه إلى الجبهة على نحو 300 ميل من القاهرة عند الحدود الجنوبية لفلسطين، حيث يرابط معظم القوة البريطانية قبالة غزة. المكان الذي هزمت فيه مرتين، كما رابطت قوات أخرى عند بئر السبع، المدخل الصحراوي إلى فلسطين.

لقد كانت المهمة الأساسية «لقوة الحملة المصرية» هي تأمين القناة، لكن كما يقول التعبير العسكري: من أجل أن يكون لهذه القوة حرية المناورة «مسافة كوع»، كانت القوة الأخرى المعروفة «بطابور الصحراء» ـ وهي تتألف من الخيالة والجمالة وكتيبتي مشاة ـ قد توسعت عبر سيناء في شتاء 1916 مبعدة الأتراك أمامها، وتاركة خلفها خطاً حديدياً وآخر للأنابيب، كانت، كما يقول ويفل: «حملة صغيرة حسنة التنظيم، انتهت بهزيمة مؤسفة في معركة غزة الأولى في العام 1917».

وقد أبرق ارشيبالد موراي، قائد الحملة إلى حكومته يقول: إن الانتصار سوف يكون في المرة المقبلة. غير أن الأتراك كانوا قد دعموا مواقعهم فكانت هزيمته التالية في غزة ثم القرار بنقله وتعيين اللنبي خلفاً له.

أطلق اللنبي اسم «قوة الشرق» على الفرق السبعة التي تقوم بحملة فلسطين (مشاة وخيالة وجمالة)، وراح يحاول بناء معنوياتها من جديد بعد الهزائم التي منيت بها، وقد نجح في ذلك فوراً كما تقول الوثائق الرسمية الأوسترالية:

«لقد مر عبر المعسكرات الحارة المليئة بالغبار مثل ريح منعشة قوية» وكتب أحد ضباط الفرقة يقول: «نادراً ما يحدث أن يكون لقائد عسكري مثل هذا التأثير في جنوده».

هنا أيضاً، كما في ثلاثة أرباع العالم تقريباً، كانت بريطانية تسيطر على البحر. والسيطرة على البحر كانت تعني تلقائياً التقدم بحراً في فلسطين: إنها الطريق الأكثر أماناً على أي حال، والأكثر استقامةً، وعليها يمكن تقبل الدعم من البوارج، كما كان الحصول على المياه قربها، سهلاً تقريباً.

غير أن غزة التي كانت تسد الطريق الساحلية، أصبحت قلعة حصينة لا بد أن يكون حصارها مكلفاً وبطيئاً. لذا لا بد من تعزيزات يطلبها اللنبي من لندن. لكن خلال تفقده الجبهة وعلى الرغم من انهماكه في استطلاعات لا حصر لها، لم ينس اللنبي حبه الذي يفوق عشقه للعسكرية: النبات والعصافير و... الناس في أرض جديدة. وقد كتب إلى الليدي اللنبي وهو في طريق عودته بالقطار: «من العصافير هناك القُبرَّة، والأبلق، والصرد، والنحل، والصقور، والكواسر، وتأتي طيور الألباتروس أيضاً إلى رؤوس الوديان. وتملأ المكان تغاريد العصافير الهازجة، وهي طيور ودية وأليفة تشبه شحروراً كبير الحجم ولها طباع أبي الحناء. وقد رأيت واحداً منها اليوم يهاجم جرادة في مثل حجمه. وهناك أيضاً ثعالبن وزواحف، وخنافس. والأرض جرداء الآن غير أنها في الربيع تمتلئ بالخضرة، وتكثر حقول الشعير والأعشاب والزهور من كل نوع. وفي الواحات وقرب القرى يعلو شجر النخيل والتين واللوز والمشمش. وهناك حقول شاسعة من البطيخ الصغير الحجم (...) وقد ذهلت اليوم وأنا أرى الإبل ترعى ورق الصبير، الشائك يستحيل على أي حيوان له حلق ولسان».

غير أن ذلك لا يخبر الليدي اللنبي بشيء. لا كلام عن خططه العسكرية. إن حبه الحقيقي هو للعصافير لا للجندية. ولم يكن يجيد كتابة الرسائل أو المحادثات الطويلة في المجتمعات. بل كان يعتبر أن أولئك المتحذلقين هم في النهاية أناس فارغون، يعرفون من كل واد عصا، من دون أن يعرفوا شيئاً بعمق، وهم يحترفون الحديث في المجالس، ويجتذبون الأسماع مرة أو مرتين، ثم تروح النفايات تكرر نفسها. هو، كان يقول فقط الكلمة الضرورية، كتابةً أو كلاماً، وغالباً ما كان كلامه عن الطيور أو عن اكتشاف جديد في الطبيعة.

وخلال عودته من تلك الرحلة سوف يلتقي اللنبي ذلك الشهير الآخر، أو ذلك «الآخر المضادّ» في حملات فلسطين، «لورانس العرب» ويكتشف هذا الرجل التحتي الأزرق العينين أن اللنبي «الجنرال الهائل العريض المنكبين» قد حار في أمره فيروي الواقعة في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» قائلاً:

«لم يستطع اللنبي أن يقرر لنفسه ما إذا كنت محتالاً أو صادقاً. وقد رأيت تلك الحيرة في عينيه وتركته غارقاً فيها».

من أجل أن يزيد في رفع معنويات جنوده قرر اللنبي أن ينقل القيادة العامة من القاهرة إلى الجبهة، في الإسماعيلية ثم إلى رفح، كما يروي، أحد أطباء العيون الذي استدعاه لاستشارته. ويضيف الطبيب في مذكراته: «دعاني الجنرال إلى العشاء، وأعطاني مقعداً إلى جانبه، ثم راح يمطرني بالأسئلة: هل أعرف شيئا عن الأوبئة التي أصابت العيون في الحملات السابقة على مصر؟ وأخبرته أنني منكبٌ على ترجمة أعمال الدكتور لاري، كبير أطباء العيون في حملة نابوليون، الذي يتحدث عن وباء كارثي حدث آنذاك، وأدى إلى إصابة الكثيرين جداً من رجال نابوليون بالعمى ما بين العامين 1798و1801. وطلب مني أن أرسل إليه نسخة عن تلك الترجمة».

ثم يلقي ذلك الطبيب الضوء على جوانب أكثر أهميةً في شخصية اللنبي عندما يتابع القول: «كان اهتمامه كبيراً بكل شيء يتعلق بمصر وسورية، قد يؤثر في القوات أو مسيرةالحملة، وقد استعار مني كتاب «فجر التاريخ» لمايرز، وكتاب «الشرق القديم» لهوغارك، ومجلدات من هيرودوتوس وتاريخ الحملات الصليبية، وكتباً أخرى حملها إلى الجبهة (...)، لقد كان مقتنعاً بأن التاريخ سوف يكرر نفسه في هذا الشرق غير المتغير، وقال منذ البداية: إن المعركة الحاسمة سوف تخاض عند ممر مغيديو». (تعبير توراتي)

في الأسبوع الأخير من تموز/يوليو قام اللنبي بجولة استطلاعية أخرى على جبهة فلسطين. وحين عاد إلى القاهرة في 31 تموز/ يوليو وجد في انتظاره برقية من الليدي اللنبي، تخبره فيها أن ابنه الوحيد، مايكل، قد قتل في فرنسة، لقد أصيب بشظية اخترقت خوذته الفولاذية فيما كان يتجه إلى أحد مواقع المدفعية، وقد عاش لخمس ساعات غير أنه لم يستعد وعيه. وكان مايكل اللنبي ملازماً في العشرين من العمر.

تلقى اللنبي الجنرال هذه الفاجعة برباطة جأش، وترك للذين حوله فقط أن يعرفوا مدى عمقها، لكنه بعد ذلك حصل على إذن بأن تنضم إليه زوجته في فيللا هيللر، في ضاحية الجزيرة.

في منتصف آب/أغسطس كان قد أعد معظم ترتيبات الحملة، وجعل مقره في «أم الكلاب» قرب رفح. وعلى الرغم من وعورة المقر وصعوبته كان اللنبي يتفقده باستمرار. وقامت في المنطقة ورشة هائلة، فمدت خطوط حديدية موازية، وشبكة أنابيب إضافية، ومخازن للذخيرة والمستشفيات والخنادق. وكان تفقده المستمر لكل شيء يثير الضباط الذين راحوا يوزعون فيما بينهم كلمة السر، وفحواها: «الثور فالت». غير أنه لم يكن يُمضي يوماً واحداً من دون أن يمتطي فرسه، ويذهب بعيداً في الصحراء بحثاً عن .. العصافير.

أعاد اللنبي تنظيم قواته في ثلاثة فيالق:

- فيلق خيالة الصحراء، بقيادة الجنرال هنري شوفيل، وهو أوسترالي.
- الفيلق العشرون، بقيادة الجنرال فيليب شتوود.
- والفيلق الحادي والعشرون بقيادة الجنرال إدوارد بافن!

أما الخطة نفسها فكانت بسيطة «كما هي جميع الخطط الناجحة في الحروب» كما يقول ويفل: تركيز قوة متفوقة ضد «العدو» من اليسار، وإيهامه بأن الهجوم سوف يتم من اليمين، وهكذا تقرر أن يقوم فيلق بإلهاء الأتراك وإبقاء اهتمامهم في غزة، فيما يقوم فيلقان آخران بضربهما من اليسار.

لكن المسألة لم تكن طبعاً بهذه البساطة.

وكانت الخطة تعاني من ثلاث مشكلات رئيسة: النقل والمياه والسرعة، بالإضافة إلى شبكة الأنابيب. وسوف يشترك 30 ألف جمل في نقل المياه خلال الحملة، لكن أيضاً كان لايزال من المهم احتلال الموقع التركي في بئر السبع قبل أي شيء، وكان ذلك صعباً ولذا لا بد من «الثعلبة» الإنكليزية الشهيرة. وهكذا رسمت خطة بأن يذهب ضابط إلى الخطوط الأمامية، ومعه أوراق زوّرت بمهارة، تثبت أن االهجوم سوف يتركز على غزة كالسابق. ثم يتظاهر الضابط بأنه أصيب بجروح فيلقي كيس الأوراق ويهرب، كذلك تثبت هذه الأوراق أن الهجوم على بئر السبع... مزيف

كان من الصعب تحديد موعد البدء في المعركة. فقد أراد اللنبي تحديده في أيلول/سبتمبر، غير أن التأخير في وصول بعض المواد، وفي تدريب القوات، أكد أن الاستعدادات لن تكتمل قبل تشرين الأول/أكتوبر. إلا أن التأجيل كانت له أخطاره أيضاً. فالأمطار الغزيرة التي تبدأ بالهبوط في تشرين الثاني/نوفمبر كانت تحول أراضي فلسطين الساحلية إلى بحر من الوحول والطين. وكانت في الأفق دلائل على أن الأتراك يحضرون التعزيزات من الشمال، ويعدون لهجوم مضاد. لكن على الرغم من ذلك قرر اللنبي الانتظار إلى حين انتهاء الاستعدادات.

وبدأت بالظهور أيضاً مشكلات غير متوقعة. إذ عندما وصلت الكتيبة الإيرلندية العاشرة من سالونيك في منتصف أيلول/سبتمبر، كان أكثر أفرادها يعانون من الملاريا، وقد نصح الأطباء اللنبي بأن هؤلاء بحاجة إلى ثلاثة أشهر من الراحة قبل الدخول في أي قتال. غير أن الجنرال البريطاني ذهب إلى قائد الفرقة الذي كان معه في فرنسة، وسأله عن مدى أهلية جنوده. وقال القائد: إنهم أقوياء بما فيه الكفاية، فأخذ اللنبي بكلامه.

لم يبنِ قراره على كلمة صديقه فحسب، بل لأنه كان يخشى على معنويات الفرقة إن هو أشعر رجالها أنهم غير صالحين.

في أوائل تشرين الأول/أكتوبر استجدت تطورات سياسية مهمة. إذ حتى الآن لم يكن اللنبي قد أعطي من قبل لندن أي هدف جغرافي، فقد كانت الأوامر لديه تقول فقط بوجوب إنزال الهزيمة بالقوات التركية أمامه، من «أجل دعم القوة الموجودة، ومعنويات هذا البلد»، ولزيادة التذمر التركي من حلفائهم الألمان، وإزالة الخطر عن بغداد التي تهددها التعزيزات التركية في حلب، لكن ها هي وزارة الحربية الآن تقول له إنها تريد إلغاء تركية من الحرب مرة واحدة، وإن هذا الهدف قد يتحقق باحتلال خط يافا ـ القدس. ومن ثم فإن له ما يريد من تعزيزات للوصول إلى المدينتين. وقد خطر لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج نقل بعض القوات المقاتلة في أوروبة خلال الشتاء، ثم إعادتها إلى هناك في الربيع. لكن هذه المخيلة الإستراتيجية لم تتطابق كثيراً مع إمكانات النقل والمواصلات وعامل الوقت. وقد حسم اللنبي الموضوع بأن

طلب 13 فرقة إضافية. واتهم لويد جورج السير وليم روبرتسون بأنه وراء المبالغة في تقدير عدد الحاميات التركية. والحقيقة ـ كما يقول ويفل فيما بعد ـ أن الاستخبارات البريطانية كانت قد أعطت اللنبي فكرة خاطئة عن حجم الأتراك، أو بالأحرى «معلومات غير كافية عن ضعفهم».

أخيراً تحدد بدء الهجوم على بئر السبع في 31 تشرين الأول/ أكتوبر، على أن يبدأ قصف غزة بعد ذلك بأيام. وخلال ذلك قام رجال اللنبي بحملات استطلاعية عدة عبر المنطقة المحايدة كان الهدف منها أولاً استكشاف الأرض قبل الوصول إلى خط الهجوم، وثانياً خداع الأتراك بحيث عندما يبدأ الهجوم فعلاً يخيل إليهم أنهم أمام حملة استطلاعية أخرى.

على الجانب التركي يقول لنا ويفل: كان هناك ضياع وانقسام، فقد كان الألمان يستعدون في ربيع 1917 لمساعدة أصدقائهم الأتراك في استعادة بغداد من احتلال الجنرال مود. وهكذا تم تجميع أفضل القوات التركية حول حلب، وشكلت لهذه الغاية أيضاً قوة ألمانية بقيادة فون فالكنهاين أحد أبرز الجنرالات الألمان. وقد اعتز الأتراك بتلك القوة لدرجة أنهم أطلقوا عليها اسم «يلديريم» أو «العاصفة». وقد عرض على مصطفى كمال، الذي سيصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية التركية، أن يقود الجزء التركي من تلك القوة غير أنه رفض الخدمة تحت إمرة ضابط ألماني.

ولم يكن تمركز القوات حول حلب بطيئاً فحسب، بل بدأت الشكوك أيضاً حول جدواه. كذلك كان خطراً على الأتراك المضي في مغامرة بغداد ما لم تكن جبهة فلسطين مضمونة، ذلك أن انهيارها يعني تعريض حلب وخطوط الاتصال إلى العراق للخطر.

وقام جدل حول هذه المسألة بين أنور باشا في الأستانة، وجمال باشا الجزار في سورية، والجنرال فون فالكنهاين في حلب. فقد كان أنور باشا يصر على تنفيذ مغامرة بغداد من دون تأخير، أما جمال باشا فكان يطلب تعزيزات للقوات التركية المرابطة في جبهة فلسطين، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يريد مساعدة الألمان وتدخلهم. وبعد زيارة

قام بها فون فالكنهاين إلى جبهة فلسطين في أيلول /سبتمبر، قرر أنه يجب إعطاء الأولوية لسلامة هذه الجبهة، وقد اقترح نقل جيش «يلديريم» كله إلى فلسطين، لدحر الإنكليز بضربة كبرى. غير أنه كان قد تأخر كثيراً في الوصول إلى هذه الفكرة ثم في إقناع الباشيين، أنور وجمال بجدواها. وهكذا لم يستطع جيش «العاصفة» الوصول إلى فلسطين في الوقت المناسب فقد سبقت الأتراك عاصفة أخرى إلى بئر السبع.

سوف يطلق الإنكليز رسمياً على تلك العملية، التي طردوا فيها الأتراك من مواقعهم عند حدود فلسطين الجنوبية: «معركة غزة الثالثة»، غير أن الاسم مضلِّل كما يقول «ويفل» .. وكان الأحرى تسميتها «المعركة من أجل غزة وبئر السبع». وقد أقدم اللنبي بادئ الأمر على قصف غزة من البحر والبر، فجعل الأتراك يركزون اهتمامهم في ميمنتهم. وبعد ذلك بأربعة أيام جرت الحملة على بئر السبع، أو الميسرة التركية. ثم بعد يومين آخرين قام الإنكليز بهجوم على غزة وأسقطوا الكثير من دفاعاتها، تاركين الأتراك في حيرة من أمرهم حول الضربة المقبلة، التي سوف تضعفهم تماماً إذ تأتيهم من الميسرة وتبعثر خططهم الدفاعية كلها.

وفي هذا الكر والفر عاد الإنكليز فنقلوا ثقل المعركة إلى غزة وشددوا حملتهم في السهول الساحلية. ولم تكن تلك معركة تقليدية، إذ كان يفصل بين جناحي الجيش الإنكليزي نحو 20 ميلاً، تربط بينهما فرقة واحدة فقط من الخيالة، وبالتالي تجعل الوسط سريع العطب. لكن اللنبي تحمل المغامرة. كان يريد بئر السبع قبل أي شيء من أجل آبار المياه فيها. ولذا حشد للمعركة قوات أكبر بكثير مما توقع الأتراك، كما استطاع هذا الثعلب الإنكليزي أن يخدع إلى حد بعيد الجنرال كريس فون كريسنستاين القائد الألماني للجيش التركي الثامن.

وفي ليل 30ـــ31 تشرين الأول/أكتوبر تحركت قوة قوامها 40 ألف رجل من مختلف الأسلحة، لاتخاذ مواقع للهجوم على بئر السبع صباح اليوم التالي. أما الحامية التركية فكانت مؤلفة من 5 آلاف رجل. وبعد مسيرة ليلية طويلة، استطاع مشاة «الفيلق العشرين» أن يحتلوا معظم المواقع دون خسائر تذكر مع حلول الظهيرة. لكن النجاح لم يكن كافياً. وكان اللنبي لا يزال قلقاً حول قلب البلدة نفسها، والآبار التي

تبعد نحو 4 أميال. وفيما ينشغل الأتراك بالدفاعات الخارجية كانت الخطة تقضي بأن تهاجم قوة محمولة البلدة نفسها من الشرق. وأصدر اللنبي الأوامر إلى شوفيل بالهجوم على بئر السبع قبل حلول الظلام، لكن قبل أن يصله ذلك الأمر كان شوفيل قد أمر لواء الفرسان الأوسترالي بالتقدم نحو المدينة. وبالفعل، قبل حلول الظلام كانت بئر السبع تسقط ومعها... آبارها سالمة.

مر اليوم الأول من المعركة مثمراً: المياه مؤمنة، فرقة تركية كاملة دمرت والقوات البريطانية على مسافة قصيرة من موقع ضرب الميسرة التركية. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر قامت الحملة الرئيسة الثانية على جبهة طولها ثلاثة أميال، غير أن خسائر الإنكليز هذه المرة كانت أكبر حجماً بكثير. وقد تبين للبريطانيين آنذاك مدى صعوبة الاختراق على الخطوط الساحلية. على أي حال مر الفصل الثاني بهدوء نسبي وبدأ الاستعداد للفصل الثالث المجهول العواقب.

فقد تبين أن المياه الموجودة في بئر السبع ليست كافية لإرواء القوة التي منع عنها حلاقة الذقون والاستحمام، وهاجت في هذا الوقت رياح الخماسين الحارة، فزادت من الطلب على المياه، كذلك دارت رحى معارك ضارية، فاشتدت الحاجة إلى المياه أكثر فأكثر. وفي هذه الأثناء وصلت إلى الأتراك التعزيزات الأولى من فرقة «العاصفة»، فظن الإنكليز أن الهدف هو استعادة بئر السبع، في حين أن الأتراك كانوا في موقف دفاعي، يريدون الآن أن يحولوا دون سقوط القدس.

حيال هذه التطورات قرر اللنبي تنفيذ الفصل الثالث، في الرابع من ذلك الشهر غير أن الجنرال تشيتوود نصحه بتأجيله حتى السادس منه. وفي ذلك الموعد بالفعل بدأ الهجوم وأرغم الأتراك على التراجع بعد تحطيم ميسرتهم. صباح السابع من تشرين الثاني/نوفمبر وصل الإنكليز إلى قلعة غزة فوجدوها مهجورة. لقد سقط الموقع الذي صد القوات البريطانية ثمانية أشهر، وأخذ الأتراك يتراجعون شمالاً على الساحل.

«لقد كانت هذه الفرصة الذهبية أمام الخيالة للقيام بمطاردة عاصفة». هكذا يقول «ويفل» في فرح.

للرجل العادي تبدو المطاردة أكثر أشكال الحرب سهولة! لكن الحقيقة غير ذلك إطلاقاً، يحذّرنا «ويفل» أيضاً: أن مطاردة عدو هارب وفاقد المعنويات يجب أن تكون سهلة من حيث المبدأ. غير أن المطاردات الناجحة كانت قليلة جداً عبر التاريخ، في حين أن عدد الهروب من المعارك كان كثيراً جداً. فالجندي البريطاني مدلل نسبياً، ومعدته أكبر أعدائه. في حين أن الجندي التركي كان قد اعتاد وعورة العيش، والنوم على الطوى. وباستطاعة الجندي الهارب عادة أن يتزود ما يشاء من مستودعاته، إلا إذا دمرت. كما أن القوات الهاربة تستطيع أن تربح الوقت، بأن تنسف خلفها الجسور والطرقات، وتقيم العوائق. وفوق ذلك كله فإن الجندي الفار أكثر سرعة من ذلك الذي يطارده. ومن هنا فإن العزم الذي أظهر اللنبي في الحملات العامين 1917و1918 كان فائقاً حقاً.

ويروى أنه رسم ذات يوم خطاً معيناً وسأل أحد ضباط الأركان إن كان من الممكن بلوغه؟ وقال الضابط: «إن ذلك محتمل ولكن ...». ولم يدعه اللنبي يكمل. «كلمة: لكن غير موجودة في قاموس الحروب. وفي المطاردة يجب استنزاف القدرة حتى نهايتها. إن القوات التي تلحق الهزيمة بالعدو يتملكها ميل إلى الاستراحة. ولذا يجب أن يكون هدفها بلوغ ما يجب أن تبلغه.. لا ما تستطيع».

لكن الهدف الصعب سيظل صعباً. وسوف يتعين على الرجل المنتصر في بئر السبع الانتظار إلى العام التالي لاستكمال حملته وحلمه «تعطيل الأتراك كلياً عن القتال». والآن سوف يستبدل العزم بالصبر.

لقد لعبت المياه دورها مرة أخرى في المشرق الصحراوي، فقد فرق العطش والتعب فيلق الخيالة الذي كان يلاحق الأتراك، وهؤلاء بدورهم حاربوا ببسالة وهم يتراجعون فما عاد في استطاعة الخيالة اختراق صفوفهم. ودارت معارك طاحنة في7 و8 تشرين الثاني/نوفمبر، ثم في التاسع منه، مثل العطش وحركة الخيول والفرمان معاً.

في غضون ذلك كان الفيلق الحادي والعشرون قد احتل غزة نفسها. أما في الجانب الآخر فقد وصل فون فالكنهاين، (وقد أصبح مارشالاً) مع أركانه الألمان إلى القدس،

وأخذوا يستعدون لاستعادة الزمام. وبدا له الوضع مناسباً للوهلة الأولى. فقد كانت هناك فرقة إنكليزية صغيرة نسبياً تلاحق الأتراك أملاً في الإجهاز على الجيش الثامن، في حين كان البريطانيون على مرمى من الجيش السابع. أما الأتراك أنفسهم - وقد وعوا أكثر من غيرهم مدى ضعفهم - فقد أمروا بالتراجع من دون قتال، إلى أن يضطر البريطانيون إلى التوقف بسبب الحاجة إلى المؤن، وعندها يعيدون تعزيز خطوطهم عند حيفا والقدس.

غير أن المارشال الألماني أمر بالقيام بهجوم مضاد. وفي 9 تشرين الثاني/نوفمبر ضبطت الاستخبارات البريطانية برقية تتحدث عن ذلك الهجوم، إلا أن اللنبي لم يُعرِها اهتماماً كبيراً. وفي 11 منه بدأت الحملة فعلاً لكنها ما لبثت أن تلاشت تحت وطأة ضعفها.

في السادس عشر من ذلك الشهر وصلت قوات اللنبي إلى حيفا، وبذلك انتهت عملية المطاردة في سهول فلسطين. وانسحب الجيش التركي الثامن إلى ما وراء نهر «العوجا» بينما التجأ الجيش السابع إلى جبال الخليل. وقد تقدمت القوة الإنكليزية الآن بعد 10 أيام من البدء في عملية المطاردة، مسافة 50 ميلاً وأسرت نحو 10 آلاف جندي واستولت على مئة مدفع.

لقد وصل اللنبي في الحملة إلى اللحظات الحاسمة. وهو يعرف، لكثرة ما قرأ في كتب التاريخ، أن هذه التلال أمامه عصت على الكثيرين من قبل، وأن تلك الممرات الغريبة الوعرة، الضيقة إلى القدس، أدت إلى هزيمة الآشوريين والرومان والصليبيين. وبين الكتب التي كان يحملها أينما ذهب كتاب «الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة» وفيه كتب جورج آدم سميث عن تلك التلال الحصينة.

«كل شيء يتضافر لإعطاء سكان المنطقة وسائل دفاعية سهلة ضد الجيوش الكبرى. إنها أرض مليئة بالمكامن والعوائق والمفاجآت، حيث لا تستطيع الجيوش الغفيرة أن تتحرك جيداً لكي تقاتل وحيث يستطيع المدافعون الاختباء».

بالإضافة إلى ما رآه من صعوبة بنفسه، تلقى اللنبي برقية من وزارة الحربية تحذره من تعريض هذه الأعداد الوافرة من الجنود إلى الخطر. ومع ذلك أصدر في

18 تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد يوم واحد من الراحة ، الأمر بالتقدم عبر التلال. لكن كأنها تضيف تحذيراً إلى تحذير، بدأت أمطار الشتاء بالهطول، لكي تذكره بمخاطر ما يفعل.

كان الجيشان التركيان منقسمَين ومشتتَين على بعد 20 ميلاً الواحد من الآخر: واحدٌ على فلسطين، والآخر في سهولها. لكن ندرة الطرقات، ومشكلات التموين، لم تترك للجنرال البريطاني من القدرة على المناورة سوى أكثرها بساطة. وقد ترك اللنبي فرقة من الخيالة، وأخرى من المشاة فقط، من أجل مواجهة الجيش الثامن عبر نهر «العوجا»، ولحماية خط المواصلات في السهول. أما باقي قواته المتوافرة، وهي فرقة من الخيالة وفرقتان من المشاة فقد أطلقها عبر التلال. وكانت هناك طريق معبدة واحدة من حيفا إلى القدس: «طريق الرومان» التي قرأ عنها اللنبي على الخريطة التي يحملها، فلم تكن أكثر من «قادومية» للدواب. ومن حسن حظ الإنكليز أن أحد ضباط الأركان كان قد طلب من اللنبي في أيلول/سبتمبر الموافقة على إنشاء فرقة نقل من الحمير والبغال تحسباً للشتاء القاسي في التلال، غير أن هذه الفرقة لم تصبح جاهزة إلا في أوائل كانون الأول/ديسمبر. وفي غضون ذلك ظل الجمل، ذلك المخلوق العجيب، الآلة الرئيسة في الزحف على القدس.

كانت الخطة العامة تقضي بالوصول إلى طريق نابلس ـ القدس من الشمال، لقطع خط الإمدادات الرئيس على الأتراك، وحملهم على ترك المدينة. وكان اللنبي ينوي تجنب أي قتال داخل القدس نفسها ولذا أمر الفرقة الخامسة والسبعين التي أو كلت إليها طريق يافا ـ القدس أن تتوقف على بعد بضعة أميال من المدينة وأن تتجه شمالاً نحو «البيرة» فيما تتقدم فرقة أخرى عبر بيت عور التحتا، وبيت عور الفوقا، نحو رام الله على طريق نابلس على بعد نحو عشرة أميال من القدس. وكانت فرقة أخرى تتقدم في وادي عجلون نحو بيت لهيا لدعم الفرقتين.

واستطاعت الفرقة الخامسة والسبعون أن تتقدم عبر طريق باب الواد وفي مساء اليوم التالي اقتحمت قرية العناب على مرمى حجر من القدس. وبعد ذلك بيوم اتجهت شمالاً واحتلت منطقة «النبي صاموئيل»، وهي تلة تشرف على المدينة.

أما الفرقة التي تولت مهمة قطع طريق نابلس، فقد واجهت مقاومة تركية شرسة، واضطرت إلى التراجع أمام الأتراك نحو بيت عور، والتمركز هناك.

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر كان قد تبين للبريطانيين أن العزم وحده لا يكفي، لا بد إذاً من التوقف إلى أن تصل التعزيزات. وفي هذا الوقت كان المارشال الألماني يترصد أملاً بهجوم مضاد جديد، فلما توقف الإنكليز قرر هو الاقتحام. غير أن محاولاته لم تنجح. وأخذت فرق إنكليزية جديدة في الوصول إلى التلال والسهل. وبدأ العد العكسي بمحاولة ثانية في اتجاه القدس.

ومن غريب الصدف أن الفيلق العشرين (البريطاني) كان من طليعة الهجوم، في حين أن الفيلق العشرين التركي كان يتولى الدفاع عن مدينة القدس. وتحدد موعد المحاولة الثانية في 8 كانوا الأول/ديسمبر. وهذه المرة قرر الجنرال تشيتوود، العقل المدبر للخطط، أن تتم الحملة على الطريق الرئيسة المتوافرة. وهكذا كان، وتوزعت الفرق الإنكليزية المهاجمة الأدوار: اثنتان تتجهان عبر المشارف الغربية للمدينة، وواحدة تتقدم عبر الخليل إلى بيت لحم، لحماية ميمنة الحملة، ثم تتجه شرق المدينة، وتقطع الطريق إلى أريحا.

فجر اليوم التالي كانت المواقع التركية قد بدأت بالسقوط. وأصبح الأتراك وكأنهم يقاتلون من دون حماستهم المعهودة. لكن المطر والضباب تدخلا إلى جانبهم ذلك النهار، فأوقفا الزحف البريطاني، غير أن معالم المعركة من أجل القدس كانت قد اتضحت. لقد ضرب اليأس صفوف الأتراك، وعندما حاول البريطانيون التقدم في اليوم الآتي وجدوا أمامهم مواقع خالية. لقد سقطت المدينة المقدسة أمام غازٍ آخر. وكانت «عادة تسقط في الخراب والدماء، أما سقوطها هذه المرة فكانت له لمسة من الكوميديا» كما يقول «ويفل» الذي يروي الدخول إلى المدينة قائلاً: «جاء رئيس البلدية رافعاً علماً أبيض، وسلم مفاتيح المدينة العظيمة للبريطانيين (...) لقد أعطاها لبعض الجنود الذين لم يجدوا أنفسهم في مستوى الحدث التاريخي، وأخيراً قبل الجنرال شيا قائد الفرقة الستين باسم اللنبي، استسلام المدينة. بعد ذلك بيومين وصل اللنبي رسمياً إلى القدس، فدخلها من بوابة حيفا على قدميه وإلى

جانبه مندوباً إيطالياً وفرنساً. وكان في موكبه أيضاً «لورانس العرب» الذي أصبح الآن برتبة مقدم. لقد استطاع اللنبي أن يكتب فيما بعد هذه العبارة التي حرم منها كثيرون: «لقد استسلمت القدس».

تخطى الدور الذي لعبه اللنبي دور أي جنرال آخر من جنرالات الشرق. ففي دوره المشرقي محطتان لا مثيل لهما: الدور العسكري في القدس، والدور العسكري والسياسي في مصر.. تلك «الجوهرة الأخرى» في التاج البريطاني المرصع بالهند وبقية المستعمرات.

ومن ثم فإن الإحاطة بدور اللنبي كله في الشرق مسألة تتطلب المجلدات، لذا اخترنا الحملة على القدس كفصل واحد يمكن أن يلقي الضوء على حياة الرجل وأبرز أدواره في الشرق.

لكن لا بد من التوقف قليلاً هنا، عند المعاني السياسية للحملة، بعدما تلهينا بالسرد العسكري، كما يراه اللورد «ويفل» الذي سيكون هو أيضاً واحداً من أبرز جنرالات الشرق فيما بعد، أي عشية الحرب العالمية الثانية.

إذاً كان اللنبي مهووساً بالتاريخ. وكان يقرأ في كل ليلة في كتابين، أحدهما الإنجيل. وبالتالي كان ينظر إلى أعماله كلها بشيء من الصليبية الحديثة. غير أنها كانت صليبية غير مغلفة بالستار الديني هذه المرة، وإنما بستارها السياسي والإستراتيجي والعسكري المعلن. ولم يكن في إمكان اللنبي أن يبعد صورة الماضي عن خياله.

إنها الطريق التي سلكها كثيرون. إنها المدينة التي تقاتل عليها الغزاة عبر التاريخ، وقبل اللنبي حاول نابوليون بونابرت نفسه الوصول إلى المدينة. ويقول الإنكليز، الذين كانوا يلاحقون إمبراطور فرنسة، إنه ما إن أبحر من الإسكندرية، حتى عرف البريطانيون أن وجهته سوف تكون ميناء عكا. وقطعت جيوش نابوليون براً الطريق نفسها التي سوف تعبرها جيوش اللنبي من العريش إلى خان يونس وغزة، بل إن هذه الأسماء ستعود إلى شهرتها في الحروب العربية ـ الإسرائيلية لكي، تدل على مدى

الارتباط بين مصر وفلسطين، وهو «امتداد وليس ترابطاً» فقط كما كان يردد الأستاذ محمد حسنين هيكل.

لقد أراد نابوليون الوصول إلى عكا لأنها «كانت المفتاح إلى الشرق»، ومنها كان يريد الوصول إلى سورية، ومن ثم التقدم إما إلى الأستانة أو إلى دلهي. وكان الإنكليز يومها يساعدون الأتراك، لكن ها هم بقيادة اللنبي يدحرونهم «ويخرجونهم من الحرب».

فالذي لم نتحدث عنه هنا هو الدور العربي نفسه أو بالأحرى تلك العلاقة بين اللنبي والأمير فيصل. غير أن جورج أنطونيوس يروي لنا كيفية وصول اللنبي في كتابه الشهير «يقظة العرب» بقوله:

«... وكان السير أرشيبالد مري قد قضى ما يقرب من عام وهو يدفع الترك ببطء إلى التراجع عبر شبه جزيرة سيناء، وكان قد وصل عند بداية سنة 1917 إلى حدود فلسطين، ثم قام في آذار/مارس ونيسان/إبريل بهجمتين على غزة، باءتا بالإخفاق المريع، ولذلك عزل من منصبه وأرسل السير أدموند اللنبي خلفاً له، فوصل القاهرة حوالي نهاية حزيران/يونيو ليتسلم شؤون القيادة. وكان أول نبأ عسكري مهم تلقاه هو نبأ سقوط العقبة، فكأنما كان ذلك النبأ تحية للقائد الجديد لدى وصوله.

وأدرك اللنبي بسرعة أهمية الاستيلاء على العقبة والفائدة التي قد يجنيها من وجود جناح عربي سيار في هجومه المقبل، فصرح أن فيصل يستطيع أن يتكل عليه في المعونة ووفى بهذا الوعد وفاءً جميلاً، وحضر فيصل إلى العقبة في آب/أغسطس فتحولت الضيعة الصغيرة حالاً إلى خلية عسكرية، كبيرة، متعددة المرافق، مزودة بمحطات اللاسلكي، وبمطار وأرصفة لإنزال المؤن. وتكونت فيها نواة جيش «نظامي» من الوحدات العربية التي تألفت في الوجه، وأضيف إليها من بعد ستمائة جندي، وهم «الفيلق العربي» الذي كون في مصر من المتطوعين في معسكرات أسرى الحرب. وبما أن العقبة خارج حدود الأراضي الإسلامية المقدسة فقد كان غير المسلمين قادرين على المجيء إليها دون تقييد، فحضر إليها عدد من الضباط البريطانيين والفرنسيين ليكونوا مستشارين لدى القيادة العربية، أو ليكونوا رؤساء حاميات خاصة من العربات

المصفحة أو الطيارات أو فرق الهجانة. أما في الحجاز نفسه فكان على إخوة فيصل أن يمضوا في عملياتهم إلى جوار المدينة، حتى نهاية الحرب، باستثناء ما قام به الأمير زيد، وذلك هو تحركه في العام اللاحق شمالاً إلى الميدان السوري.

وخلال ستة أشهر بعد سقوط العقبة ظل فيصل منهمكاً في إدارة مهمة مزدوجة، هي وضع قواته في تنظيم حربي، وتوسيع دائرة التحالف مع القبائل. وكان حينئذ على بعد 150 ميلاً من مراكز اللنبي الأمامية، وعلى صلة مكفولة جواً وبراً بمركز رئاسة القوات المصرية الغازية، وكانت أكبر حشود العدو المواجهة له تتمركز في معان، فأصبحت هذه المدينة هدفه العسكري الآتي. وعند نهاية العام كان قد أنجز تهدئة الخواطر بين القبائل، حتى تمكن من أن يضم إليه كل القبائل في منطقة معان. وتطور جيشه المدرب من نواة عددها أورطتان فأصبح قوة جيدة الأعداد تتألف من لواء من المشاة وأورطتين من الركبان (على الجمال والبغال).

وفيما كان فيصل مستغرقاً في الاستعدادات العسكرية والسياسية، كان الشريف ناصر وعودة ولورنس يخرجون في حملات متعددة، للإغارة على السكة الحديدية؛ وتخريب الطرق والجسور والقناطر، وإيقاع ضربات مريعة بالعدو ـ وإن كانت صغيرة ـ وتخلل هذه الغارات فصل الخريف من قبل أن يبدأ اللنبي سيره شمالاً نحو فلسطين في نهاية تشرين الأول/أكتوبر، وفي واحدة من تلك الغارات قرب المدورة، نحو نهاية أيلول/سبتمبر، نسفت جماعة يقودها لورنس قطاراً من الجنود الأتراك، وقتلت منهم سبعين جندياً. وبعد ثلاثة أسابيع استولت تلك الجماعة على كمية من المؤن كانت مرسلة هذه المرة أيضاً إلى ذلك الرجل التعيس الحظ ابن الرشيد. وقام الشريف ناصر في الأيام الأخيرة من كانون الأول/ديسمبر، بهجوم جريء على جرف الدراويش فأخذ ما يزيد على مائتي أسير، ثم احتل الطفيلة، وهي قرية مهمة في منطقة زراعة القمح، وعندما حاول طابور تركي مكون من 800 جندي استعادتها، ردوا على أعقابهم مضطربين، وخسروا 300 قتيل؛ و200 أسير.

فإذا نظرنا إلى المعاني العسكرية في احتلال العقبة، وجدنا أنه سبَّب حرجاً بالغاً للقيادة التركية ـ الألمانية بسورية في وقت كانوا يحتاجون فيه إلى كل رجل وكل

بندقية لمقاومة الزحف البريطاني نحو القدس. أما نتائجه السياسية فإنها كانت أشد إضراراً وإن خفيت عن الأنظار في البداية، فقد أصبحت العقبة تجسيداً ملموساً للثورة وقاعدة لتقويض السلطة التركية في سورية سياسياً مثلما كانت قاعدة لتفكيك كيانهم العسكري هنالك».

ويفسر لنا «يقظة العرب» السبب في نجاح الحملة الإنكليزية فيقول:

«في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر شن الجنرال اللنبي هجوماً أدى إلى احتلال القدس في التاسع من كانون الأول/ديسمبر، وكانت قد سقطت قبل ذلك مدن غزة والخليل ويافا وبيت لحم في حملة تميزت بالعناية التي صاحبت وضع خطتها، مثلما تميزت بالجرأة والبسالة التي نفذت بها تلك الخطة. ثم أنجزت عمليات أخرى أصغر منها لتثبيت المكاسب، وفي نهاية سنة 1917 كانت القوات البريطانية قد احتلت احتلالاً عملياً راسخاً كل ذلك الجزء من سورية الذي يمثل ما يسمى «سنجق القدس».

ولصعوبة طبيعة الأرض وحلول خريفٍ قاسٍ شاذٍ في ذلك العام كان تقدم الجيوش البريطانية شاقاً عسيراً، فلم يكن يجد عوناً إلا في الموقف الودي لدى الأهالي، إذ كانوا يحيون الجنود تحية الحلفاء المحررين، ويقدمون إليهم العون تلقائياً، وتحول الضباط والجند العرب في الجيش التركي إلى صفوف البريطانيين، وتطوعوا بنقل أخبار عن خطط الأعداء، ومدى تنظيماتهم الحربية، وكلها أثبتت أنها كانت قيِّمة. ولقي المنتصرون في القدس ترحيباً أصيلاً ـ وإن يكن مقهوراً ـ من شعب فعل فيه الجوع والنفي والتغريب حتى قضى على نصفه. ومع ذلك فحين أنشأت القيادة البريطانية مكتباً لتسجيل المتطوعين الذين يحبون العمل في جيش فيصل، أبدت قوة الحماسة المحلية قلة الرجال الأصحاء القادرين. وقام شاب من إحدى الأسر العربية الكبيرة (المفتي أمين الحسيني) يجوب البلاد المحتلة، وخلق حركة من التطوع ولعب دوراً فعالاً في تنظيم فريق المتطوعين، حقاً إن عدد المتطوعين كان صغيراً لم يتجاوز ألفين، ولكن المدهش أن يتقدم للتطوع مثل هذا العدد في بلاد مثقلة بالنكبات».

ويجب طبعاً ألا ننسى شيئاً مهماً: ففي الوقت الذي كان أدموند اللنبي يغير الخريطة الجغرافية أو العسكرية في العالم العربي، كان الغرب يضع اللمسات الأخيرة

على التغيير السياسي والقومي. فالعام 1917 عام سقوط الأتراك والألمان، هو أيضاً عام وعد بلفور، الرجل الذي سوف ينشئ فوق أنقاض فلسطين «وطناً قومياً لليهود».

كذلك لا بد من الإشارة إلى انتهاء دور اللنبي العسكري لكي يؤدي في مصر دوراً سياسياً أساساً. لقد كان بالنسبة إلى الإنكليز، العسكري الوحيد الذي لم يتعلم «السياسة» في الهند ومع ذلك عرف جيداً كيف يتحول إلى إداري في خدمة صاحب الجلالة. آنذاك، الملك جورج الخامس.

هنري غورو
الذراع المقطوعة على فرس أبيض

لكي نعرف من هم «جنرالات الشرق»، لا بد أن نعرف تلك الطريق التي سلكوها إلى الشرق أو إلى المشرق. والعسكريون يسلكون في زمن الحرب طريقاً واحدة على أي حال: طريق الحرب!

غير أن جنرالات الشرق لم يكونوا جنرالات الحرب وحدها، بل كانوا أيضاً جنرالات السلام الضائع، وكانوا جنرالات تقسيم المنطقة، واحتلالها، وإخضاعها زمناً والمساومة عليها، وتنويع الأنظمة فيها، بل إن الشرق لن يعرف، بين العام 1918 أي نهاية الإمبراطورية التركية، وبين جلاء الجيوش الأجنبية عن المنطقة بين منتصف الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات ـ لن يعرف إذاً سوى الجنرالات وحملة عصا الماريشالية، مع أن الصحراء ستكتشف لزمن طويل آثار خطى ضابط برتبة ملازم، كان يدعى لورانس.

عندما توقف القتال في نهاية الحرب الكونية الأولى، كانت ثماره تتساقط من شجرة السلام على رأس بريطانية بلا حساب. إذ مع حلول كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، كانت الراية البريطانية المضلعة ترتفع في فلسطين، وسورية، ولبنان، والعراق، فوق ساحة تشمل جميع الطرق البرية التاريخية بين المتوسط والمحيط الهندي.

لقد كان حلماً استعمارياً لا مثيل له. وها هي «المسألة الشرقية» تحل إذاً بقوة السلاح البريطاني. وقد أثبت هذا السلاح وجوده، أو حضوره، بأن بريطانية تخطت معاهدة سايكس ـ بيكو نفسها، فامتد الحكم البريطاني إلى الداخل العراقي، حيث كان يفترض أن يتمتع العرب باستقلال حقيقي. لكن ها هم الموظفون البريطانيون والهنود يملؤون الأرض، وها هي الروبية الهندية تحل مكان «الرشادية» و«المجيدية» والمتليك!

لقد استأثر البريطانيون بالعراق، كما استأثروا بمصر، جوهرة أخرى من جواهر التاج، وكاد أدموند اللنبي، الذي سيصبح أحد أبرز جنرالات الشرق، يعلن سورية وفلسطين ولبنان كلها محميات بريطانية أخرى، لكنه عاد فقبل مرغماً أن يقيم الفرنسيون إدارة مدنية على الساحل السوري (الأرض العدوة المحتلة شمالاً) كما كان يراها الإنكليز، وأدار الهاشميون شؤونهم السياسية في الداخل (الأرض العدوة المحتلة شرقاً)، وحصر الإنكليز منطقة احتلالهم الرئيسة في فلسطين (الأرض العدوة المحتلة جنوباً) مع بعض الاستثناءات:

غير أن ضباط اللنبي كانوا الأوصياء على كل مدينة رئيسة في المشرق، بما في ذلك بيروت، لقد كانت هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها في نهاية الحرب: 200 ألف جندي بريطاني يحتلون ـ بكل وضوح ـ كل نقطة إستراتيجية في العالم العربي. وفي المقابل كان هناك جيش فرنسي رث المظهر، نصفه من المجندين الأرمن، ولا يزيد عدد أفراده على ستة آلاف. إنه جيش لن يخيف الإنكليز و.. لا العرب، ولا كان يخيف لويد جورج في لندن: هو، كان يريد، أمام هذا المشهد العسكري المفحم، إعادة النظر في اتفاقات سايكس ـ بيكو!. وقد كتب لويد جورج في مذكراته فيما بعد يقول: «عندما جاء كليمنصو إلى لندن في نهاية الحرب، ركبنا سيارة واحدة إلى السفارة الفرنسية، وسط هتاف الجماهير، وبعد وصولنا إلى السفارة سألني ماذا نريد من الفرنسيين بالتحديد، وأجبت على الفور إننا نريد ضم الموصل إلى العراق، وأن تكون فلسطين تحت السيطرة البريطانية من دان إلى بئر سبع. وقد وافق من دون تردد».

الحقيقة أنه لم يكن لدى الزعيم الفرنسي اختيارات كثيرة، وعندما دافع أندريه كارديو عن هذه التنازلات أمام الجمعية الوطنية الفرنسية، في صيف العام اللاحق، أعاد إلى أذهان السادة الزملاء «بأن المسألة كانت مسألة الوصول إلى اتفاق مع إنكلترة حول بعض النقاط. كان علينا أن نحصل منها على ما كانت تمانع من إعطائه بأي ثمن: احتلال الضفة اليسرى من الراين، كان علينا الحصول على الفحم الحجري من بلاد السار، وأشياء أخرى. وإنه في مثل هذه الظروف ذهب المسيو كليمنصو إلى لندن.

على أي حال، كان لباريس أيضاً «تعويضات» مشرقية! وقد تضمنت هذه التعويضات: المنطقة المعروفة بكيليكية الأكثر خصباً من فلسطين، وميناءها المثالي: الإسكندورن، التي ستكون أيضاً مصفاةً لنفط العوامل. وقد وافق لويد جورج أيضاً على أن يمنح فرنسة 25 في المئة من أسهم شركة النفط التركية، وهو القسم الذي كان مخصصاً في السابق لألمانية.

لكن فرنسة كانت تريد أكثر من ذلك، ولن تقبل بمجرد دور استشاري في الداخل السوري، بل كانت باريس تريد أن تمد سيطرتها من الساحل إلى سورية كلها، أي مسافة تبلغ ثلثي بريطانية وسبعة أضعاف سويسرا، وإذا كان البريطانيون يعاملون العراق بالطريقة التي اختاروها، فلماذا لا يكون للفرنسيين الحق نفسه في سورية؟ هكذا تساءل المسيو روبير دو كي من الخارجية الفرنسية.

في 20 آذار/مارس من العام 1919. يلتقي لويد جورج برئيس الوزراء الفرنسي في باريس، وفيما تسلح كليمنصو بالصمت وراح يتطلع من النافذة عبر شارع «نتيو»، كان وزير خارجيته المسيو بيشو يستفيض في شرح الروابط التاريخية بين سورية وفرنسة، مبرراً المطالبة بحق الانتداب. لكن لويد جورج ذكرَّ المسيو بيشو بأن ثمة عوائق كثيرة ليست فقط تلك الواردة في معاهدة سايكس ـ بيكو، بل أيضاً الوعود التي أعطيت للأمير فيصل والعرب، ثم أضاف في شيء من الخطابة أن مليون جندي بريطاني خاضوا الحرب ضد تركية وأن مساعدة العرب لهم كانت جليلة في هذا الحقل!. لا، إنها أكثر من جليلة. هكذا تدخل الجنرال اللنبي ليصحح معلومات رئيسه!

لم يتراجع المسيو كليمنصو، إنه يريد سورية. عقد اجتماع آخر في أيار/مايو. لقد خسرت بريطانية 125 ألف قتيل في الحملة على تركية، في حين أن المساهمة الفرنسية لا تذكر. هكذا أصر لويد جورج. «لكننا تخلينا لكم (!!) عن الموصل وفلسطين» هكذا أجاب كليمنصو، الذي يريد وجوداً كاملاً في دمشق وحلب، بصرف النظر عن أي شيء، بما في ذلك تلك المعاهدة الملعونة، سايكس ـ بيكو.

لا ، لا بد من سورية ولو طال السفر، أو الجدل. لقد كانت باريس تريد مستعمرات في المشرق العربي، كما هو الحال في مغربه، وكانت هناك جماعات كثيرة تضغط من

أجل ذلك. ثم إن المستعمرات كانت امتداداً هائلاً للإمبراطورية، وقد زودتها إلى الآن بـ1.918.000 جندي، بينهم 680 ألفاً حاربوا في قلب أوروبة، ومعظم هؤلاء الجنود مروا في البر الفرنسي خلال الحرب، تاركين تأثيراً مهماً في السكان المحليِّين. وقد كتب مراقب يدعى ستيفن روبرتس يومها:

... «عرب وبربر وتونسيون وزنوج ومغاربة وصوماليون وهوفاس وسلافيون وكريليون وناس من المحيط الهادي والمستعمرات القديمة كانوا هناك، لقد تحققت الإمبراطورية في ضربة واحدة. وتلك الأحلام والخيالات تحولت إلى حقائق من لحم ودم. لقد ارتعدت فرنسة طرباً بهذا الشعور».

الواقع أن فرنسة حصلت من المستعمرات على أشياء أخرى غير الجند: نحو مليار فرنك من المال، وما حجمه مليونان ونصف مليون طن من المنتجات، بما فيها الحبوب والحنطة والزيوت. ولم تكن سورية تعدم هذه المصادر، كما تعرف فرنسة عبر قرون من التبادل التجاري. إنها بستان تاريخي، وكروم شاسعة، وحقول قطن فسيحة.

أيضاً انقسم الإنكليز فيما بينهم - بعضهم -، وبينهم اللنبي، لا يريد لفرنسة شيئاً على الإطلاق، وبعضهم الآخر يريد التساهل. وراح اللنبي يحرض ضد الفرنسيين، في الوقت الذي وصل إلى بيروت المسيو جورج بيكو، كبير المستشارين السياسيين الفرنسيين، لكي يتفاوض مع الضباط الإنكليز. وقد كانت لدى المسيو بيكو ثلاث شكاوى رئيسة: أولاً الضباط الفرنسيون يوضعون دائماً في الصفوف الخلفية خلال الاستعراضات، ثانياً: البنوك الفرنسية لم تُعْط رخصاً للعمل في بيروت، ثالثاً: العملة الفرنسية ممنوعة من التداول، وتذهب صحيفة «لوتون» التي ستصبح فيما بعد «لوموند» اليوم إلى أبعد من ذلك لتقول في 19 تموز/يوليو 1919: «ثمة حقيقة فاضحة، إن عملاء بريطانية يتبعون في المشرق سياسة تهدف إلى. إبعاد فرنسة».

لم يكن ذلك بعيداً عن الصحة. وكان البريطانيون يشيعون باستمرار أن فرنسة هي حامية الأقليات المسيحية تاريخياً في المنطقة، وهم لم يكونوا يهدفون من وراء ذلك إلى إكبار فرنسة لدى المسيحيين بل بالطبع إلى إضعافها لدى المسلمين. وسوف يؤيد

هذه العلاقة الخاصة بين فرنسة والكاثوليك، الشيخ بشارة الخوري الرئيس اللبناني الداهية، الذي كان وزيراً لدى الفرنسيين وصار رئيساً ضدهم حين يقول في «حقائق لبنانية»: إن رجال الإكليروس كانوا يصلون علناً للسلام... وضمناً لفرنسة».

لقد كانت لدى العرب مخاوف حقيقية من فرنسة. وفي آيار/مايو 1919 صارح فيصل الأول كليمنصو نفسه بالقول: «إنك تعرف أن الكثيرين من الفرنسيين تداعبهم الآمال بأن يجعلوا من سورية فرنسة جديدة. وقد أبلغني رجال أعمال فرنسيون القول في باريس: «إننا لا نستطيع الاعتراف باستقلال سورية، لما لذلك من مضاعفات محتملة في الجزائر وتونس. إنك ترى في وضوح الهوة التي تفصل بيننا. ولذا فإنني أحبذ مساعدتك، لكني لن أقبل العبودية مطلقاً».

لقد كان فيصل بحاجة إلى حلفاء. والإنكليز مثل الفرنسيين بحاجة إلى أصدقاء، وفي هذه المرحلة يطل على الشرق للمرة الأولى بصورة جدية.. الأميركيون!

لم تكن للأميركيين عقد ذنب بعد في المنطقة. بل إن الرئيس ولسون أطل بمثالية رفيعة على «مؤتمر السلام» في باريس. لا معاهدات سرية تربطه ولا ضغوط. والبند الثاني عشر من البنود الأربعة عشر التي قدمها للمؤتمر في كانون الثاني/يناير 1918 يلمح بوضوح إلى أنه لن يلتزم باتفاقات سايكس ـ بيكو وعندما عقد «الأربعة الكبار» أول مؤتمر لهم حول «الشرق الأوسط» في باريس، في شباط/فبراير 1919، أصر ولسون على أن يعرف رأي «المواطنين» في سورية والعراق بالانتداب. لكنه في الحقيقة كان يعرف جيداً أن ثمة ثورة عربية تبدأ في سورية. وها هو اللنبي يؤكد له ذلك. والضباط الإنكليز الآخرون. وأيضاً - بل خصوصاً - المبشرون الأميركيون. البروتستانت الذين كانوا يعرفون أن السوريين يكرهون الفرنسيين، بقدر ما يريد لهم المبشرون أو أكثر.

من هنا طالب ولسون في ذلك الاجتماع الشهير في شارع «نيتو»، بإرسال لجنة تحقيق مشتركة إلى المنطقة. ولم يعجب الأمر لا الفرنسيين ولا الإنكليز بالطبع.

لكن فيصل الأول طار فرحاً. ويروى أنه مر بعربته أمام فندق الكريون والماجستيك وأمام الكي دورسيه، وراح يرمي المساند، وقال لأصدقائه فيما بعد: «لم أكن أملك قنابل لأرميها».

وفي غضون ذلك سمى ولسون العضوين الأميركيين في اللجنة، وهما: هنري كينغ، وهو قسٌّ بروتستانتي شهير، وتشارلز كرين، وهو صناعي من شيكاغو، ما لبث أن أعلن حبه للعرب وكرهه للصهيونية. أما المرافقون للاثنين... فقد كانوا جميعاً من جهاز الاستخبارات، وبينهم البروفسور وليم ليباير، وهو مستشرق معروف، والقس جورج مونتغمري، وهو أيضاً مبشر بررتستانتي عاش في المنطقة، والكابتن وليم ييل من شركة ستاندارد أويل.

كانت تلك بداية الطريق الأميركية... الطويلة! أما الخلاف البريطاني ـ الفرنسي فقد ازداد حدةً. وأخذ لويد جورج أخيراً يسير في طريق التسوية، ليس إكراماً لفرنسة، بل لأن متاعب بريطانية أخذت تزداد في أيرلندا ومصر والعراق. فقد أصبح ثمن المحافظة على 200 ألف جندي في الشرق الأوسط، أكبر من أن تتحمله بريطانية، وهكذا أوفد وزيره اللورد كورزون إلى باريس، ومعه «المسألة الشرقية برمتها». وهناك تقرر أن تنسحب بريطانية من سورية تاركةً الساحة للفرنسيين. وبقي أن يبلغ فيصل الأول بهذا القرار المرير.

اختار الإنكليز.. طريقة الإبراق. إنها الأقل حرجاً. سوف يبدأ إذاً الجنرالات الفرنسيون بالإطلالة على الشرق دون حساب. وكان أول الواصلين الكبار الجنرال غورو، جنرال الساعد المقطوع. لا بد أيضاً من اللجوء إلى مذكرات الشيخ بشارة الخوري، لكي يصف لنا بالكثير من التحفظ وصول الرجل:

«... وبقي الحال على هذا المنوال، إلى أن وصل إلى بيروت في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1919. الجنرال غورو قائد حملة الدردنيل وجيش الأرغون أثناء الحرب الكبرى، والهدف من تعيينه مفوضاً سامياً، الاستفادة من خبرته العسكرية، التي قد تحتاجها حكومة باريس في معالجة وضع المنطقة الشرقية، التي بقيت حتى ذلك الحين في غير قبضة الفرنسيين، أضف إلى ذلك الهيبة التي ترافق الثوب العسكري عادة، خصوصاً إذا كان من يرتديه من قادة الحرب الكبرى ومنتصريها.

نزل الجنرال غورو من مدَّرعة فرنسية في مرفأ بيروت، وقد أعدت له السلطة استقبالاً رائعاً، فامتطى جواداً أبيض، ومرَّ في شوارع المدينة، والعساكر مصطفون على جانبي الطريق يؤدون التحية، والطائرات تحلق في السماء، حتى وصل موكبه إلى ساحة البرج (ساحة الشهداء)، فعرض القوى البرية والبحرية والمصفحات والفرسان «الصباحيين»، ثم ركب سيارة مكشوفة، يواكبه هؤلاء الفرسان إلى المقر الذي أعِدَّ له في الحي الشرقي.

وفي المساء أقيمت في قصر الصنوبر حفلة استقبال وتعارف، أطلقت أثناءها المدافع والأسهم النارية، ولفظ المركيز جان دي فريج أحد وجوه البيروتيين خطاباً ترحيبياً عدَّد فيه مناقب المفوض السامي الجديد: من بطولة في الدردنيل ذهبت بإحدى ذراعيه، ومن دراية في تسيير الأمور، فبدت على وجه الجنرال دلائل السرور والبهجة، ولاطف الأعيان الذين قدموا إليه، وخرج إلى الشرفة محيياً الوفود الغفيرة التي انتشرت في الساحات والحدائق.

أراد الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً، لمواكبته على الخيول العربية، في تنقله في أسواق المدينة...».

سوف يؤدي غورو دوراً مهماً في حياة الشرق. وهو الذي سيعلن أيضاً «لبنان الكبير». كذلك سوف يؤدي بشارة الخوري، أو بالأحرى سوف يستمر في أن يؤدي دوراً رئيساً، إلى أن يسقط على يد عسكري يدعى فؤاد شهاب. ألم يلاحظ بشارة الخوري وهو يافع بعد، أن ثمة هيبة ترافق الثوب العسكري»!

بعد وصول غورو بقليل، يلحق به إلى الشرق كاتبان فرنسيان شقيقان: جيروم وجان تارو. ثمة مهمة على عاتق الأخوين تارو: أن يصفا لنا «الطريق إلى دمشق» ثم يصدران ذلك في كتاب «عرض على وزارة الداخلية في العام 1923».

لطالما سحر الغربيون بالمشرق، والدكتور ألبرت حوراني يقول لنا: إن نابوليون بونابرت كان صادقاً عندما اعتنق الإسلام في البداية، ولم يكن يهادن أهل مصر.

فهو على أي حال كان على خلاف شديد مع الكنيسة في فرنسة. غير أن كُتّاباً آخرين، قدماء ومعاصرين، بينهم المفكر صادق النيهوم، لا يرون في إشهار نابوليون لإسلامه أكثر من مخادعة.

لكن أول ما يطالعنا عند الأخوين تارو هو الانبهار: «إننا نلحظ في سورية بصورة أولى، منطقتين: الأولى هي الساحل ولبنان، حيث سمح لنا (للفرنسيين) بإقامة الإدارة التي نرغب بها. والأخرى: هي الداخل السوري، بما في ذلك حلب ودمشق، التي وجب أن تشكل تحت حمايتنا دولة مستقلة نمدها بالمستشارين والموظفين. إن هذا الترتيب الغامض مع حلفائنا، لم يترك لنا سوى القليل من النفوذ في سورية، لكنه كان كافياً لأن يعطي فرنسة، المنشغلة آنذاك بأشياء أخرى، الشعور بأن حقوقها في المشرق لن تهضم.

إذاً هي مسألة «حقوق» لا مكاسب، كما تفرض الديبلوماسية على المسيو كليمنصو أن يقول. والأخوان تارو، اللذان لا تلزمهما السياسة بشيء، بل فقط يلزمهما حبهما للجنرال غورو، يعتبران أيضاً «أن الترتيب الغامض في معاهدة سايكس ـ بيكو، شيء تم على عجل، وفيه غبن شديد لفرنسة، لكن الأخوين تارو لا يكفان عن الانبهار: «هذا الساحل السوري هو طريق الآلهة. من هنا انطلق إلى العالمين، الإغريقي، واللاتيني، بعل وملكارت وعشتروت وجميع القديسات الوثنية في سورية وبابل (....)، ويرتفع خلف بيبلوس، تدريجياً حتى الثلوج، بلد الصخور والغابات الذي شهد ولادة أدونيس». ويتوقف الأخوان تارو عند نواعير حماة الشجية، ثم عند زنوبيا ملكة تدمر، وفجأة يتوقفان في دمشق «ملتقى جميع التيارات الإسلامية»، حيث يأتي الحجاج من كل مكان، ويتبادلون الأفكار والتفسيرات والرؤى. ثم يتساءل جيروم وجان تارو: «هل هي هذه الثرثرة الخالدة؟ هل هي حدائقهم؟ هل هي جناتهم الفسيحة التي تخفي عن أعين الدمشقيين سحر مدينتهم».

لم يرافق غورو الكتّاب وحدهم، فالمفوض السامي الجديد هو أيضاً قائد... الجيش الرابع! الكتّاب مجرد شهود في الحملات العسكرية.

كان غورو يعرف، في قرارة نفسه، والآن يعرف ـ على الطبيعة ـ أن ثمة عائقاً أساسياً في وجه الفرنسيين، هو فيصل الأول. وإذا كان العرب قد ثاروا ضد المسلمين الأتراك، فكيف بهم ضد «الأوروبيين الكفار»، وهكذا بدأت الثورة ضد الفرنسيين في شكل مكامن هنا وهناك في الجبال الوعرة. لكن العداء وصل إلى ذروته في العام 1920، عندما أعلن الأمير فيصل فجأة أنه لا يحق للجيش الفرنسي استخدام خط السكة الحديدية بين الرياق وحلب. لقد كان هذا القرار بمثابة إعلان حالة حصار على الكتائب الفرنسية المتمركزة في كليكية وتعتمد في تموينها بصورة رئيسة على ذلك الخط. بالنسبة إلى غورو، كان ذلك الاستفزاز الأخير. أو الاستفزاز المطلوب!

وفي 14 تموز/يوليو 1920 أي في ذكرى سقوط الباستيل ، بعث المفوض السامي إلى دمشق بتحذير «شديد اللهجة»، يتهم فيه الحكومة بشن حملة من أعمال العنف، والإخلال بالاتفاقات المعقودة بين فيصل وكليمنصو في كانون الأول/ ديسمبر 1919 وهي في الحقيقة اتفاقات لم تبرم أبداً. ويشدد غورو في رسالته على حق فرنسة «بتأمين السلام والأمن في سورية» وفقاً لمقررات مؤتمر باريس، ويرافق ذلك بخمسة شروط مسكونية: حق فرنسة «المطلق» في استخدام خط حلب ـ رياق، واحتلال مدينة حلب «كضمانة»، وإلغاء الخدمة الإجبارية في «القطاع العربي»، واعتراف دمشق الكامل بالانتداب الفرنسي، وقبول الفرنك عملة رسمية في سورية.

لكن ما هو الانتداب حقاً؟

مرة أخرى لا بد من العودة إلى بشارة الخوري:

«إن الانتداب لمن المخلوقات العجيبة في حقل القانون الدولي. وخير دليل على عجبه ذلك اللَّبس الظاهر في نص البند 22 من ميثاق جمعية الأمم. فهو يعلن بصورة عامة: «إن رفاهية وتقدم الشعوب التي انسلخت عن الدول الحاكمة فيها سابقاً، والتي لا تقوى أن تتولى قيادة نفسها بنفسها بسبب مصاعب العالم الحديث، يستلزمان رسالة تمدين مقدسة، من الواجب إدخال ضمانات لها في هذا الميثاق».

هذا «التمدين» سوف يفسره سعيد فريحة في الأربعينيات في رسم كاريكاتوري شهير يمثل جندياً سنغالياً يقول بلهجة فرنسية مكسَّرة لأحد اللبنانيين: Moi Civilizer vous!.

عندما وصلت الرسالة إلى دمشق، عرف فيصل أن المواجهة مع فرنسة قد آن أوانها. وهز برأسه قليلاً عندما أبلغه رئيس الأركان ياسين الهاشمي أن قواته لا تملك من الذخيرة سوى القليل.

ووافق الأمير «مبدئياً» على شروط غورو، لكن إذا كان الإنكليز لم يحترموا وعودهم، فالفرنسيون لن يحترموا اتفاقاتهم. وصباح 21 تموز/يوليو بدأت القوات الفرنسية بالزحف إلى الداخل السوري!

وأوفد فيصل الأول مبعوثاً خاصاً إلى غورو، لكي يعترض عنده على خرق الاتفاق، ويذكره بالبرقية التي بعث بها الأمير، غير أن غورو كان بارداً كالثلج، وقد قال بكل برودة: إن البرقية تأخرت نصف ساعة في الوصول. واستشاط ساطع الحصري غضباً. وطلب من غورو أن يصدر الأوامر بالانسحاب الآن، وقد أبلغ نوايا الأخير الحقيقية. «لقد فات الأوان»! هكذا جاء الرد البارد مكرراً! ثم قرأ المفوض السامي ثمانية مطالب، «بضمانات» يريدها من فيصل، وعندما عاد الحصري ومعه هذه المطالب ثار الأمير كما ثارت سورية، ودعا إلى جلسة طارئة لحكومته، لكن كان واضحاً سلفاً أنه لم يكن من الممكن القبول بالشروط من دون إشعال حرب أهلية.

في الثاني والعشرين من تموز/يوليو، قرر غوابيه الاستمرار بالزحف، وقد عرف أنه مقبل على مكمن، لكنه كان يعرف في الوقت نفسه أنه ما لم يصل إلى منابع المياه فسوف تموت جنوده عطشاً. وفي المقابل كان يوسف العظمة قائد القوات العربية يرسم خططه. ولم يكن العظمة أقل حنكةً أو تدريباً من غوابيه. فهو من خريجي الكليات الحربية في ألمانية وفي فرنسة نفسها أيضاً، وكان قد نال أعلى الرتب في الجيش العثماني خلال الحرب. وبالتالي كان العظمة يعرف، أنه بما يملك من عتاد، لن يستطيع القضاء على الفرقة الثالثة في ذلك المخنق الإستراتيجي، وفيما أراد الفرنسيون إكمال طريقهم، فتح العظمة النار من مدافع «الهاوتزر» والرشاشات. وخطر لغوابيه آنذاك، وقد سقط المئات من جنوده، أن يتراجع قليلاً، ثم يأتي القوات العربية من خلف الجبال. وفي غضون ذلك، حلقت أسراب من المقاتلات الفرنسية، وراحت تقصف رجال الشهيد العظمة فأوقعت فيهم آلاف الضحايا، وكان بين المستشهدين قائد المدافعين نفسه.

تلك كانت ميسلون.

جنرال آخر يدخل المسرح المشرقي: لم يصل «غوابيه» إلى دمشق كمنتصر فحسب، بل كطاغية أيضاً. وكان أول ما فعله أن أمر بحل الجيش السوري، وتجريده من السلاح، ثم ساق الوطنيين إلى المحاكمة، الواحد بعد الآخر. ومنع غوابيه رفع العلم العربي، وأنشأ حكومة صورية، إلى أن وصل إلى دمشق غورو بنفسه، وأقام الحكم الفرنسي هناك بعدما كان الأمير فيصل قد تركها قبل ذلك بسبعة أيام، أي في أول آب/أغسطس.

تضايق الإنكليز، تضايقوا، على الورق طبعاً، أما في الساحة نفسها، لم يتغير شيء، وقد كتب تشرشل إلى لويد جورج يقول:

«لقد قام بمعظم العمليات التي جرت، جنود من الأفارقة السود، وقد شعر الرأي العام البريطاني والضباط البريطانيون بالأسى، خصوصاً أولئك الذين خدموا العرب، إذ رأوا أن أولئك الذين كانوا حلفاءنا ورفاقنا، والذين تطلعوا إلينا للحماية ولتصحيح المظالم التي لحقت بهم، يوطؤون ويسحقون، ويأخذ الفرنسيون مدنهم خارقين بذلك كل معاهدة مكتوبة... لكن ماذا نستطيع أن نفعل ونحن تربطنا بالفرنسيين تلك العلاقات القوية، ولم يكن بإمكاننا أن نفعل، أي شيء لمساعدة العرب. في هذه القضية...».

وفي غضون ذلك وصل الأمير فيصل إلى فلسطين، ثم إلى القنطرة في مصر، حيث استقل قطاراً آخر مثل أي مسافر عادي، وكان مشهداً مؤلماً وقد وقف الزعيم العربي إلى جانب حقائبه الملكية على رصيف المحطة.

لم تكن تلك نهاية الثورة العربية، ولا كانت نهاية الاستعمار أو الانتداب. إن هنري جوزيف أوجين غورو الباريسي، الذي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1867 ـ 1946)، والقادم من حروب إفريقية والدردنيل، سوف يكون أيضاً أول جنرال «إعلامي» في غزوات الشرق. فالشقيقان تاربو لم يكونا الإعلاميين الوحيدين اللذين قدما إلى المنطقة من أجل التطبيل لصاحب الذراع المقطوعة. بل أخذ الفرنسيون، عبر رجالهم، يرسمون للرجل صورة ملونة لماعة. وإنك لتقرأ نصاً من نصوص تلك

الطبقة يقول... «وكان أبوه الدكتور غورو عضواً في الجمعية الطبية، وكان مشهوراً بدماثة أخلاقه، وعطفه على المرضى، وتفانيه في خدمتهم، وكان لفخامة الجنرال ثلاثة إخوة سقطوا كلهم في ساحات الشرف».

ولم يتوقف المديح على النثر بل تعداه إلى الشعر أيضاً:

أيـــن الـعـروش وأيـــن غـلـيـوم وأيـــن
مـــدافـــع وذخـــائـــر ورجـــال

ما صاح صائحكم «لتحيَ فرنسة»
إلا وطـــاب بمـــأزق تجـــوال

كـم غـــارة شـعـواء غـــورو غـــار في
عـمـراتـهـا وحـســامـه نـصـال

وقال شاعر آخر (وكلاهما من دون هوية):

قـف بـالـوقـار وحـيِّ الـقـائـد البطلا
وانهض من اليأس واستقبل به الأملا

لا يهم، هناك دائماً شعر جاهز:

غـــورو تحـيـيـك أطـفـــال وأرمـلـــة
وبـائـس كـــاد يـدني بـؤسـه الأجـلا

وأمـــه عـشـقـت والـعـشـق مـن قـدم
شـعـبـاً تـفـانـى لحـب الـغـير واشـتـعـلا

غير أن هذا الشعب «المتفاني في حب الغير» حتى الاشتعال، كان في الحقيقة واقفاً بين ثلاثة أنواع من الاستعمار، وكان يشتعل فقراً وحاجة، ليس إلى الحرية وحدها، بل إلى الخبز أيضاً.

كان هم غورو استقطاب الناس، شعراً أم نثراً، وفيما رفع السيف في دمشق، يبدو أنه لم يكتف بإعلان «لبنان الكبير» فحسب، بل ذهب إلى أبعد الحدود في مسايرة

اللبنانيين. ويروي الوزير اللبناني الراحل يوسف سالم في مذكراته، أنه حين تخرج مهندساً من فرنسة وعاد إلى لبنان، حاول أن يطلب وظيفة، فقيل له: إن الوظائف الرفيعة وقف على الفرنسيين: «لكنني لم أيأس، بل تابعت السعي، حتى استطعت الوصول إلى المفوض السامي نفسه، وكان يومذاك الجنرال غورو. ولم يكن من السهل على كبار أعيان البلاد الوصول إليه، فكيف بشاب مجهول مثلي. لذلك كانت فرحتي كبيرة عندما تلقيت دعوة لمقابلة المفوض السامي في مصيف عالية (...) كان الجنرال غورو يقضي الصيف في قصر بسترس الكبير، المختبئ بين الأشجار الملتفة في أعلى المصيف فوق الخط الحديدي. ولم يكن يخطر في بالي أنني سأقابل القائد الكبير، صاحب الذراع المقطوعة في معركة الدردنيل، ولكنه استقبلني وأصغى إلي (....)، لكن على الرغم من تدخل المفوض السامي بنفسه ظلت أبواب الشركات مغلقة في وجهي».

ويضيف يوسف سالم:

«كنت في عداد اللبنانيين الذين رحبوا بانتداب فرنسة على لبنان بعد حكم العثمانيين ومآسيه، واعتبرت الانتداب صيغة جميلة للتعاون بيننا وبين فرنسة فإذا بي أكتشف أنه قناع شفاف يختفي تحته وجه الاستعمار البشع».

غير أن كثيرين كانوا ـ آنذاك منهمكين في ممالأة هذا الاستعمار. وإننا نقرأ في كتاب «في سورية مع الجنرال غورو» لمؤلفه ا. فيرتيليه كيف وصل الكاتب إلى بيروت وأمضى يومه الأول في الإصغاء إلى خطابات الترحيب والتبجيل. ثم يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك مع فيريليه لأنه يرسم لنا صورة بالغة التفاصيل عن تلك الحقبة الدقيقة.

وما أشبه اليوم بالبارحة!

إنه تعبير كلاسيكي طبعاً، لكن هل يملك المرء نفسه وهو يقرأ أن عزيزنا فيرتيليه قد وصل إلى لبنان بحراً... عن طريق لارنكا؟ يقول : «أبحرنا اليوم عبر ساحل قبرص. وفي الرابعة توقفنا على شاطئ لارنكا، حيث أفرغت السفينة (بيارلوتي) بعض البضائع. ونزل بعض المسافرين إلى البر، لكنهم ما لبثوا أن عادوا، فهذه

المدينة الصغيرة لا شيء فيها يثير الاهتمام، والمشهد من بعيد أكثر سحراً. إن جزيرة إفروديت أقل جمالاً عن قرب مما هي عن بعد.

«غداً صباحاً، سوف نصل في النهاية إلى غاية رحلتنا، إلى سورية».

«إنه البلد الرائع، مهد الحضارات القديمة، أرض بعل وأدونيس وعشتروت... الأرض الحمراء التي تجتذب الغزاة، حيث رفع الحثيون علمهم، وبنى الفينيقيون السفن التي نقلت ثروات آسية إلى أثينة وروما ومرسيلية، حيث جاء الفرس والمصريون والآشوريون والمسلمون والصليبيون.... الإسكندر وتيتوس وهارون الرشيد وبونابرت، حيث أنشأ العباسيون والأمويون هذه الحضارة الرائعة، ونشروا هذا الأدب المذهل، الذي تخلد سحره عبر العصور».

في اليوم التالي يصل الأباتي فيريليه إلى صوفر، أو إلى «عين موفر» كما كانت معروفة آنذاك، ويكتب لنا في ذلك النهار من أيلول/سبتمبر: «لقد كان الحلم جميلاً، والمشهد لا يفتقد إلى العظمة المروعة. وجبال لبنان، بأوديتها وقممها المفاجئة وقراها الأنيقة التي تختبئ في الأودية وتشكل إطاراً رائعاً، غير أن بيروت، بسطوحها الناتئة ذات السقوف الحمراء، تبدو وكأنها مدينة غربية . فهل جئنا إلى الشرق بحثاً عن «كان» أخرى؟!!.

يقابل صاحبنا في اليوم الأول بين من يقابل: «السيد عمر الداعوق رئيس غرفة التجارة، والمسيو هو مغلو رئيس البورصة (...)، ويقول لي أحدهم: إن لبنان بلد فقير يملك الكثير من المال»، ثم يضيف كأنه يكتب اليوم بالضبط: «إنها لفكرة عميقة حقاً، ذلك أن المال هنا يستخدم في المضاربة لا في الإنتاج!». وروى لي آخر أنه قبل ثلاث سنوات لم تكن هناك سيارات في لبنان، أما الآن فهناك 2000». ثم يصعد الكاتب مثل يوسف سالم إلى مقر غورو في عالية، غير أنه فيما كان سالم يبحث عن وظيفة، كان فيرتيليه يسجل الانبهار الغربي التقليدي بلبنان: «وهناك اكتشفنا متعة الجبل كلها فيما كنا نطل مباشرة على البحر الأزرق».

هذا الجنرال غورو يقول فيرتيليه «سوف ينشئ قريباً لبنان الكبير بأن يعطي للدولة الجديدة الساحل من طرابلس إلى صور وسهول البقاع الغنية، غير أنه بعد

توسيع رقعة الأرض اختل توازن الأجناس المتنافسة، وربما ترتبت خطورة كبرى جداً على هذا التوزيع في مراكز القوى، إذا لم تسارع سلطة الانتداب إلى تهدئة النفس».

مع فيرتيليه إلى دمشق أيضاً... بطريق ميسلون وسوف نرى هنا كيف كان الفرنسيون ينظرون إلى هذا المفترق التاريخي في حياة العرب: «عبرت سيارتنا على عجل هذا الجزء من التلال ثم السفوح الصحراوية لجبال لبنان. توقفنا في خان ميسلون، ساحة المعركة المعذبة، حيث حققت قوات الجنرال غورو نصراً براقاً وحاسماً على قوات الأمير فيصل صديق الإنكليز، وقد وصف لنا الكولونيل غورو على الطبيعة تفاصيل هذه المعركة. وكانت الساحة لاتزال مليئة بفراغات الخرطوش (الرصاص)، وقد حملت بعضها معي للذكرى.

«وقد جاءت سيارتان لاستقبالنا قبل 20 كيلومتراً من دمشق في أرض قاحلة. وكان في إحداها الجنرال كاترو الحاكم الإداري للمنطقة. وبعد مراسم الاستقبال أكملت القافلة مسيرها. كانت الحرارة مرتفعة والطريق مليئة بالغبار، ثم فجأة، عند منحنى الطريق يتغير المشهد تماماً. خضرة وأزهار في كل مكان، وهواء نقي يطلع من بردى، النهر النابع من الصخور. وهكذا نقترب من المدينة التي قارنها الشعراء العرب عن حق «بجوهرة منحوتة في زمردة». ثم تبدت لنا دمشق بمنازلها ذات الشرفات، ومآذنها الـ 250، وكثافة سكانها (350 ألفاً)».

غير أن الإعجاب بدمشق يرافقه ذلك الحقد الفرنسي على الأمير فيصل، كما يرافقه دائما الحذر المبطن من الإنكليز، والكره المعلن لهم، هذه هي إذاً الرواية الفرنسية شبه الرسمية لوصول غورو ومعركته مع فيصل، كما يقدمها لنا فيرتيليه:

«عندما نزل الجنرال غورو على الساحل اللبناني في تشرين الثاني/نوفمبر 1919، قرر الإنكليز أن على قواتهم أن تجلو عن سورية، وإذ انسحبوا بسرعة شديدة (هل كان الأمر مدبراً) نسوا أن يفرغوا مخازنهم من الذخيرة والسلاح، وهكذا استولى صديقهم الأمير فيصل على هذه الكميات، واستطاع بذلك أن يسلح أنصاره. لقد حاولت إنكلترة في الواقع غداة توقيع الهدنة أن تحقق الحلم الجريء الذي وضعه أحد

أشهر استعماريها الكولونيل لورانس: حيث عمل على إيجاد إمبراطورية عربية تضم الحجاز وسورية والعراق وشرق الأردن.

«وإذ تركت الفرق البريطانية الخمس المنطقة التي أرادت منها فرنسة أن تحرسها، وجد الجنرال غورو نفسه مضطراً للحلول محلها بقوته التي لا تتعدى 8 آلاف رجل، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يساعد قواتنا في كيليكية التي كانت تتعرض باستمرار لهجمات من الزمر التركية، وحتى من قبل جيش مصطفى كمال النظامي.

«وكان من الضروري بأي ثمن المحافظة على اتصالاتنا مع هذه المواقع الموزعة في الجبال، ومن أجل ذلك كان لا غنى عن استخدام السكة الحديدية بين رياق وحلب، غير أن فيصل احتل هذا الخط، ورفض وضعه تحت تصرف الجنرال غورو. وفوق ذلك فإن الأمير أعلن نفسه ملكاً على سورية، الأمر الذي كان يعني بصورة غير مباشرة انفصاله الكلي عن وصايتنا.

وهكذا بعث الجنرال غورو ـ الذي تلقى تعزيزات ضئيلة من فرنسة (9 فصائل مشاة وسرب طائرات ومدفعين 105) ـ بإنذار نهائي إلى فيصل، الذي تظاهر بقبوله أولا، ثم رفضه بعنف، وزحف بقواته غرباً. وفي خان ميسلون وقعت المعركة وانتهت بانتصار فرنسي صاعق...».

لكلٍ روايته. الإنكليز لهم روايتهم، الفرنسيون لهم روايتهم، الإنكليز يقولون في وثائقهم الرسمية: إن الفرنسيين طلبوا منهم إخلاء سورية ولبنان. والفرنسيون يقولون: غدرونا ومشوا. وبين الروايتين أو الحقيقتين كانت تعتصر بلاد بأكملها، ظنها بعض القادة والجنرالات ذات يوم مجرد حديقة من حدائقهم. بل إن الشرق كان لأوروبة «الحديقة الخلفية» كما يقول التعبير المعاصر في الحديث عن الأميركيتين.

جورج كاترو:
الحلم بتاج دمشق

هو الآخر جاء إلى الشرق مرتين، وهو أيضاً عبر المشرق والمغرب معاً، وهو أيضاً كان من جنرالات الحربين، عسكري في الأولى، وعسكري في الثانية، وسياسي بين المرحلتين.

بل مع بداية هذا القرن تماماً، في العام 1900 بالضبط كان هذا العسكري يتذوق أول مرة طعم الصحراء. لقد أمضى الجنرال كاترو حياته العسكرية كلها تقريباً متنقلاً بين المشرق والمغرب، في الصحراء، في الجزائر، في مراكش، في الأناضول، ثم بين العام 1919 و1922 رئيساً للبعثة الفرنسية في الجزيرة العربية ودول المشرق. ومن معارك المشرق إلى معارك الهند الصينية، حيث كانت فرنسة غارقة في القتال حتى أذنيها. لكنه في العام 1940 انضم إلى قوات الجنرال ديغول لكي يؤدي في المشرق دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً مرة أخرى.

وقد ترك الجنرال كاترو الكثير من الآثار والمذكرات التي تغطي تلك المراحل كلها، لكننا اخترنا العودة معه إلى العام 1919، حين يقول لنا إن هذه المشكلات التي كلف التعاطي معها «مشكلة معقدة بصورة مقلقة، أطلق عليها اسم الشرق الأوسط».

وفي العام 1954 حين يعود الجنرال كاترو 38 عاماً إلى الوراء، إلى العام 1922، ليضع كتابه الشهير «مهمتان في الشرق الأوسط»، يتطلع إلى الخلف متسائلاً: «هل تغير شيءٌ ما؟ لا شك في أن عناصر جديدة وكبيرة الأهمية قد دخلت على الساحة، لكن الحقيقة أن المشكلة واحدة منذ 38 عاماً وصلبها واحد. والتساؤل الذي تطرحه لم يتغير: إلى من تؤول السيطرة على هذا المفترق القاري وهذا الفيض من نفط الشرق الأوسط»؟

لقد كان كاترو عسكرياً ممتازاً وكانت له أحياناً مواقف سياسية لينة كما حدث عشية استقلال لبنان، لكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن الرجل يطرح المسائل دائماً

من وجهة نظر استعمارية، ومن ثم، فهو يلقي أضواء كثيرة على النظرة الغربية إلى المنطقة، حين يمضي قائلاً: «تلك هي الحقيقة الجوهرية، إستراتيجياً واقتصادياً التي تسيطر على تاريخ المنطقة».

ثم ينتقل كاترو فوراً وبصورة عفوية إلى وضع نفسه داخل النزاع الفرنسي ـ البريطاني فيقول: إن «أحدا لا يستطيع أن يتجاهل أنه خلال تفكيك الإمبراطورية العثمانية كان هاجس حكومة لندن الدائم هو أن تحفظ لبريطانية وحدها النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية في جميع المقاطعات العربية المحررة. وهي سياسة جعلتها في صراع دائم، خفي أحياناً، ومعلن أحياناً أخرى، مع فرنسة، وقد انتهى، الصراع أخيراً بإبعاد فرنسة عن الشرق الأوسط في العام 1945.

غير أن أبعاد هذا الصراع تخطت النفوذ البريطاني والنفوذ الفرنسي. ألم يكن هو ـ أي هذا الصراع ـ السبب الأساسي في دخول النفوذ الأميركي؟ بلى، بل إنه أدى أيضاً إلى ظهور النفوذ السوفياتي من جديد كما يلاحظ الجنرال كاترو «.. الكل يعرف أنه بعد هزيمة ألمانية في العام 1945 انقسم حلفاء الأمس إلى معسكرين متقاتلين، فأخذ المعسكر الغربي يحاول بكل قواه أن يمنع الاتحاد السوفياتي من الوصول إلى الشرق الأوسط، وأن يحصر السيطرة في نفسه، وهنا أيضاً نشأ نزاع جديد، الأمر الذي يعني أن المشكلة لم تتغير في جوهرها، ولكنها تغيرت في أبعادها».

لقد خابت أحلام بريطانية في احتكار الشرق الأوسط، يقول لنا الجنرال كاترو. وهو لا يخفي غبطته، حتى لو أن منافسها أصبح الاتحاد السوفياتي، وذلك «لأن الغرب يفتقر إلى سياسة موحدة ومتجانسة».

هناك مرارة كبرى في نفس الجنرال، بعضها من أيام النزاع البريطاني ـ الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبعضها الآخر من النزاع الذي قام بين «فرنسة الحرة» والإنكليز في الحرب العالمية الثانية. وفي كل ما كتب نشعر أن كاترو يتمتع دائماً بدور الرجل الثاني. إذ هناك الدور الذي أداه إلى جانب ديغول بصفته مساعداً أيمن، وهناك دوره مع الجنرال لايوتيه في المغرب، وهناك دوره مع الجنرال غورو في بداية الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

لذلك يبدأ كاترو كتابه «مهمتان في الشرق الأوسط»، بالدفاع عن الجنرال غورو، بل هو يفتح الصفحة الأولى على جنازة غورو في العام 1946: «بدا وكأن ستارة النسيان قد أسدلت على الذكرى المجيدة لهذا القائد العظيم، الذي كان تفانيه في خدمة فرنسة أشبه بسيرة ملحمية. لقد ظلت ساحة الإنفاليد شبه مهجورة، وجماهير العاصمة لم تكن تتدافع، تلك الجماهير نفسها التي كانت تصفق بحماس لغورو وأسطورة غورو حين كان حاكماً عسكرياً لباريس، يوم كان في احتفالات 14 تموز/يوليو يتقدم قواته وهو يحمل بيده الواحدة التي تركها له العدو سيفه المنتصر».

«لم يأت الباريسيون لإلقاء التحية على غورو» يقول لنا كاترو مجدداً وفي حزن، ذلك أن الزمن قد تغير، ومنذ العام 1940 تحول الباريسيون عن الجنرالات لكي يكرموا زعماء آخرين. ثم راح يعدد لنا معارك غورو مبتدئاً بالتشاد، حيث يبدو أن الفرنسيين لم ينقطعوا عن القتال حتى الآن «ثم موريتانية، وبعدها ارتفاع العلم الوطني في الصحراء (...)، وبعدها العام 1912 في فاس» حيث قمع غورو - طبعاً - حركة وطنية أخرى، ثم الدردنيل، ثم معركة شمبانيا في العام 1918 «هذا الزعيم الجنرال غورو، كان خادماً كبيراً للوطن».

لكن ما هي الأفكار التي كانت تدور في رأس غورو، وبالتالي في عقل فرنسة، في المراحل الأولى من الانتداب؟

يقول لنا كاترو إنه بعد احتلال دمشق «وبعد احتلال المدن الرئيسة الأخرى في سورية، أصبح لزاماً علينا أن ننظم إدارة البلاد، وأن ننشئ النظام الانتدابي. وكان هناك تساؤل أولي يفرض نفسه: هل يتعين علينا أن نحترم الوحدة السورية كما جبلت زمن العثمانيين ضمن إطار الولايات السورية، على أن نقتطع منها القسم الساحلي في فلسطين الذي كان تحت الوصاية البريطانية؟، هل نعمد على العكس من ذلك، إلى تقسيمها وفقاً للمعطيات السكانية الإقليمية؟، أم هل من الأفضل أن نتبنى صيغة وسطية تقضي بأن نقسم سورية إلى كيانات إدارية متميزة، يراعى فيها احترام الإطار التاريخي، ثم نوحدها بموجب رابط فدرالي؟

لو كان الجنرال كاترو في سورية آنذاك لكان وقف مع الحل الأخير، هكذا يبلغنا.. لكن للأسف فإن الجنرال غورو وأعوانه اختاروا الحل الثاني، وراحوا يقسمون سورية إلى دويلات، كما اقتطعت من نظام الولاية صور وطرابلس و... معها سهل البقاع «من أجل إقامة لبنان الكبير».

لقد كانت مضاعفات هذا القرار «ثقيلة جداً، لكنه كان يعكس ردة فعل أوساط المفوضية السامية ضد فكرة الوحدة السورية، والفكرة القومية التي طرحها الملك فيصل». وكان أهل المفوضية - كما يقول كاترو - يعملون من منطلق «فرق تسد»، لاعتقادهم «أن تفكيك مملكة الأمير فيصل الزائلة، سوف تدمر التضامن القومي وفكرة الاستقلال التي يجسدها هذا الأمير».

لكن النتيجة كانت عكس ذلك في رأي كاترو، «فالواقع أن تقطيع سورية الذي ازداد خطورة بضم بعض المناطق المسلمة والسورية إلى لبنان الكبير ذي الأكثرية المسيحية، أدى إلى تسمم علاقتنا مع سورية. لقد أثارت هذه الأعمال المشاعر القومية والحساسيات الدينية في وقت واحد، وأعطت للمواطنين الانطباع بأنه تحت ستار الانتداب سوف تسعى فرنسة إلى إعطاء الأفضلية للأسرة المسيحية، التي كانت حاميتها التقليدية خلال الحكم العثماني، وذلك على حساب المسلمين. لقد كانت الثقة مفقودة أصلاً في روح المساواة الفرنسية، وهكذا ساد جو من الخيبة، شعرت به فور تسلّمي مهام مندوب المفوض السامي لدولة دمشق».

يقول لنا الجنرال كاترو: إنه حاول بشدة أن يقنع رئيسه وصديقه غورو بإعادة توحيد سورية، وأن غورو أراد ذلك حقاً، لكنه ما لبث أن اكتشف صعوبة الأمر.

هل كان غورو متعصباً للمسيحيين في الشرق، وخصوصاً في لبنان؟ لا. يقول كاترو في الدفاع عن صديقه: «لقد كان متديناً لا متعصباً»، وكان يعتقد أنه يخدم مصلحة فرنسة في اتباع السياسات التي اتبعها، والتي أدت فيما أدت إلى ضياع سنجق الإسكندرون فيما بعد.

في ضوء هذه الأجواء في آب/أغسطس 1920 يصل كاترو إلى دمشق قاطعاً إجازة قصيرة في جبال الألب، بعد قليل من عودته من مهمة إلى الحجاز. فقد وصلته برقية عاجلة من غورو يدعوه فيها للذهاب إلى بيروت على عجل، لكي يتجه منها إلى دمشق مندوباً للمفوض السامي. وهكذا سارع إلى مرسيلية ليستقل أول باخرة إلى لبنان، وقبل أن ترسو «كان هناك زورق يحملني إلى سيارة على المرفأ، والسيارة تطير بي إلى عالية مقر الجنرال غورو. وقد حذرني مرافقي من أنه بعد انتهاء مقابلتي للجنرال لابد أن أتجه فوراً إلى دمشق حيث الأمور تسير بشكل سيء. وهذا ما أكده لي غورو بعد حين بكلمات قليلة.

«لقد روى لي الجنرال أن الأمير فيصل قد حرَّض على الثورة في حوران. وهي مقاطعة تقع على أبواب دمشق وجنوبها. وقد انفجرت هذه الثورة بمناسبة رحلة كان يقوم بها ثلاثة من وزراء الحكومة السورية الجديدة الموالية للانتداب، وقد ذهب هؤلاء إلى حوران لاجتذاب الناس إلى جانب السلطة، لكن اثنين منهما قتلا، واختفى الثالث، وكان جبل الدروز هو أيضاً على أهبة الانضمام إلى الثورة، في حين أن دمشق ـ حيث كان السلاح متوافراً بكثرة ـ كانت تغلي، وكان وجود جيش فيصل فيها يبعث على القلق.

«هذه هي الحالة، قال لي غورو، إنك تعرف الآن ماذا ينتظرك. إن عليك الآن أن تتولى الشؤون الإدارية والسياسية، وإنك تتلقى أوامرك مباشرة مني، وليس من الجنرال غوابيه الذي يقود القوات هناك، اذهب واعمل بسرعة. وأعتقد أن الأمور ستحل».

بعد دقائق كان كاترو يتجه بالسيارة الفخمة «ليس إلى حدائق دمشق المعلقة» التي طالما سمع عنها، وإنما نحو «قدر يحمل في طيه الكثير من المغامرة». وهناك في دمشق، سوف يكتشف المندوب الجديد واقعاً سياسياً جديداً: إن الانتداب محاط بثورة عدائية في جبل الدروز من ناحية، ومن ناحية أخرى بشرق الأردن «الذي سوف يصبح قريباً معقل الأمير عبد الله شقيق الأمير فيصل، إنه البلد الذي يقال منذ الآن إنه سوف يكون ملجأ الوطنيين السوريين المعارضين للانتداب الفرنسي، ومركزاً لانطلاق عملياتهم العسكرية ضد نظام الوصاية الفرنسية».

لقد كان الفرنسيون يخشون، أكثر من أي شيء آخر «ذلك العرق المقاتل ـ الدروز» ويخافون من الجبل على نظام دمشق، «ولذا كان لا بد من التحرك بسرعة» بالتودد إلى زعامة الجبل. فقد كان كاترو منذ البداية مع «حل سياسي» يأخذ في الاعتبار أوضاع الشرق. وقبل أن ينتهي عمله بصفته مندوباً للجنرال غورو كان قد أصبح قادراً على المفاخرة بأنه استطاع أن يقيم الهدنة مع ثلاثة من أعداء فرنسة التقليديين: الدروز، والبدو، والروم الأرثوذكس الذين يأخذ عليهم كاترو انضواءهم في صفوف الأمير فيصل» وقد توصل إلى هذه المهادنة لأنه عرف كيف يفهم الشرق وكيف يقدم أحياناً مصلحة فرنسة، وأحيانا أخرى «الكرامة العربية» التي يحرص عليها المشرقيون كثيراً.

ويقر كاترو بأن «تطبيق الانتداب كان في حد ذاته مسألة دقيقة، أولاً لأنها كانت التجربة الأولى من نوعها، وثانياً لأن محتوى الانتداب لم يعط تحديداً قانونياً». وإذ يطلب منه غورو أن يضع دستوراً قانونياً للانتداب، يجد كاترو نفسه أمام المعضلة: من جهة إعطاء سورية الاستقلال، كما تنص توصيات هيئة الأمم ومن جهة أخرى إخضاعها لوصاية أجنبية.

ما هي الأفكار التي كانت تتنازع كاترو وهو يحاول الوصول إلى حلول يقدمها لغورو؟ إنه يستفيض في شرحها:

الشق الأول ـ يقول كاترو ـ كان يعني أنه «لا يحق للموظفين الفرنسيين أن يمارسوا، في صورة مباشرة، إدارة الشؤون السورية الداخلية، بل هو يقضي، على العكس من ذلك، بإقامة حكومة سورية وطنية، وإدارة حكومية سورية تتولى هذه المسؤولية. أما الشق الثاني فكان يفرض على مثل هذه الإدارة ألا تتصرف إلا بمشورة ممثلي فرنسة. ومن ثم يحد من حريتها».

من هنا أشار كاترو على رئيسه بأن يكون الانتداب أقل ظهوراً قدر المستطاع، وأقل ثقلاً على نفوس أهل سورية الجياشة بالمشاعر الوطنية. وقد كان يحتذي آنذاك «بذلك المثال البارز الذي أعطاه لنا اللورد كرومر، الذي بمساعدة جهاز من الموظفين الكبار وبلقب متواضع هو «وكيل صاحبة الجلالة»، استطاع بكل هدوء وفاعلية أن يدير

شؤون مصر». وهكذا أخذ كاترو يبتعد ما استطاع عن الواجهة السياسية حتى إنه لم يكن يوقع المراسيم أو القرارات الصادرة عن الحكومة. «في الاحتفالات الرسمية كنت أيضاً أعطي الكرسي الأول رئيس الحكومة، وكان بعض الناس يقول إن هذه المظاهر لا يمكن أن تخدع أحداً حول حقيقة السلطة، ربما.. ولكن ذلك الذي يصدق المظاهر لا يعرف الشرق حقاً».

ويذهب الجنرال كاترو إلى أبعد من ذلك في وصف الخطوات التي اتخذها للتخفيف من وطأة الانتداب: «وهكذا بالنسبة إلى قمة الحكم، لم تكن الآلة الانتدابية تضم أكثر من ثمانية أشخاص: هم مندوب المفوض السامي، وسبعة مستشارين فنيين، يأخذون رواتبهم من الخزينة الفرنسية لا السورية، أما في الأقاليم، وللأسباب نفسها فقد خفض إلى الحد الأدنى عدد المستشارين الفنيين..». لكن الجنرال لا يلبث أن يقرَّ بأنه أقام في الوقت نفسه جهاز مباحث يطلعه على كل مجريات الأمور.

كان غورو يحب كثيراً المجيء إلى دمشق. كان يحب جوها التاريخي. وكانت الإيحاءات الطالعة من حجارتها العتيقة، توقظ فيه الرجل الرومانطيقي والعسكري معاً. إنها مدينة الأمويين، وتلك القلعة الحصينة التي تحدت هجمات الإفرنج، وعاصمة صلاح الدين، ذلك الفارس المنتصر في حطين. إنها المدينة التي تطلع فيها أصوات المؤذنين من 132 مئذنة، داعيةً إلى التوحيد.

بهذه الكلمات يصف كاترو بعض معالم دمشق، المدينة التي يبدو أنه أحبها أيضا مثل غورو: «... وتلك الشوارع التي تلتف مثل الأنهر في السوق القديمة، حيث يسير جنباً إلى جنب بألبستهم المختلفة، الدمشقيون والبدو والدروز والسقاة وباعة الحلوى والجمّالون ومعهم جمالهم. ومن الخانات والدكاكين تتصاعد رائحة الشرق ومياه الورد».

لقد كان غورو يتذوق «عطر الشباب الخالد، وعطر المخيلة الكبرى، والروح الإنسانية المهيمنة». في دمشق كما تذوقها من قبل في فاس، «والأيام التي كان يمضيها هناك كانت بالنسبة إليه استرخاءً للنفس، في جو عزيز عليه. كان يترك كل همومه

خلفه ويروح يتصرف في منزلي على سجيته». ويروي لنا كاترو: إن الرجل الذي دمر ميسلون هو أيضا ذلك الرجل الذي كان يقوم بدور الدليل السياحي لأقاربه وأصدقائه كلما جاؤوا إلى دمشق، وبين هؤلاء شقيقته ماري تيريز غورو.

غير أن إحدى هذه الجولات السياحية تحولت إلى مأساة ـ والرواية دائماً للجنرال كاترو ـ يوم حلت في دمشق شقيقة غورو وإحدى بنات عمه. وسأل غورو صديقه كاترو: إلى أين يذهبون؟. فاقترح عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق. فأكثرية أهل القنيطرة من الشراكسة، والشراكسة كانوا من المعروفين بودهم لفرنسة، لا محبةً بها بل نكايةً بالآخرين، ومن ثم كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية «كما كنت آمل، وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه، فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجؤوا إلى مناطق الانتداب البريطاني. وأقصد بذلك شرق الأردن . وقد كان الوطنيون السوريون بزعامة متطرف يدعى أحمد مريود، يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله، والمعروف أن الطريق الواصلة بين دمشق والقنيطرة لم تكن بعيدة من مدينة إربد الأردنية حيث كان يقطن مريود أكثر من 60 كيلومتراً. وفي ضوء ذلك كان يجب الحيلولة دون مثل هذه المحاولة، بإقامة حراسة مشددة على تلك الطريق. وهكذا أصدرت الأمر بأن يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على أحصنتهم، يكون كل واحد منهم على مرأى من الآخر». لكن جميع الاحتياطات التي اتخذها كاترو لم تكن كافية. وسوف يكون في إمكان رجال مريود التسلل إلى صفوف الدرك بشكل مذهل. كيف؟ وهل فعلوا ذلك بالتواطؤ مع الدرك؟، (لا) .. يقول لنا الجنرال. لكنه يروي على أي حال أن غورو أراد أن يصطحب شقيقته وابنة عمه في سيارته، فنصحه بألا يفعل : «إنك يا سيدي الجنرال تقوم برحلة رسمية في بلد مسلم، حيث لا تعطي التقاليد للنساء أكثر من دور بعيد، ومطلوب منك أكثر من غيرك ألا تتحدى مشاعر المواطنين، ولذا من الأفضل أن تستقل السيدات سيارة أخرى من سيارات الموكب».

قبل غورو الاقتراح متردداً. وهكذا استقل سيارته المكشوفة ومعه فيها، إلى جانب السائق، مترجمه عن العربية الكولونيل «بارنيت»، وخلف السائق على كرسي صغير

الجنرال كاترو، وفي المقعد الخلفي جلس حقي بك العظم حاكم دولة دمشق، وإلى يمينه غورو.

وخلف سيارة غورو كانت هناك سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الأمين العام للمفوضية العليا، وفي نهاية الموكب كانت سيارة الآنسة غورو وقريبتها المدام لونغمار.

«انطلق الموكب في سرعة، تتقدمه سيارة الجنرال القوية. وكانت السماء مشعة. وفي الأفق بدا جبل الشيخ طاغياً. وكان رجال الدرك كل في مكانه» لكن هناك أيضاً كان الآخرون. وما أن تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل، حتى بدا لكاترو أربعة من رجال الدرك «بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا إلى المكان الذي يفترض أنهم يحتلونه». أو هكذا خيل لكاترو الذي فكر أيضاً في معاقبتهم فيما بعد على نوعية أطقمهم. لكن ما أن تخطى الموكب المنعطف الجبلي «حتى فتح الفرسان الأربعة النار، يدعمهم شريك خامس كان مختبئاً وراء الصخور. وفي الطلقات الأولى أصيب الكولونيل بارنيت، الذي هب واقفاً، إصابة قاتلة وسقط على الطريق. وأصيب حقي بك العظم إصابة خفيفة، أما غورو نفسه فكانت حصته ثلاث رصاصات. وحين سمع الرصاص قال لي غورو بكل هدوء: إنهم يطلقون النار علينا من فوق فهل معنا رشاش؟ وكنت بردة فعل عفوية قد التقطت رشاشاً لكنني وجدته فارغاً وكانت جيوبه في مكان ما من السيارة التي لم آلفها كثيراً. وشعرت أن السرعة وحدها يمكن أن تنقذنا، فصرخت في أذن السائق: أسرع يابني أعطني الذخيرة، فدلني إليها بإشارة منه، لكننا كنا قد ابتعدنا عن مرمى الاغتياليين ووصلنا إلى مركز درك حقيقي، وهناك غيرنا عجلة السيارة وتفقدناها فوجدنا فيها آثار 14 رصاصة، فقال لي غورو: «إنني مدين لك لأنك أنقذت حياة شقيقتي التي كان لا بد أن تجلس هنا». فأجبت: سيدي الجنرال لقد أنقذت الآنسة غورو، لكننا لا نعرف مصير بقية الموكب. والكولونيل باريت قتل. وأنت نفسك نجوت بأعجوبة، إنني أتحمل المسؤولية لأنني مسؤول عن كل شيء على أراضي الانتداب، ولذا أرجو أن تقبل استقالتي»، لكن غورو أجاب: «إنني أرفض استقالتك. لقد كنت مثلنا ضحية لسلسة من الظروف المتلاحقة.

إنني أوليك كل ثقتي، وعلينا جميعاً بدءاً مني، أن نستخلص الأمثولة من هذه الواقعة. لقد كان علينا ألا نسبق السيارات الأخرى كل تلك المسافة بل أن نظل في الموكب».

يتوقف كاترو عند طباع صديقه غورو مرة أخرى: لقد حافظ على هدوئه تحت الرصاص، وبعد ذلك لم يتفوه بكلمة واحدة.

كل ذلك وبقية سيارات الموكب لم تصل بعد. وأخذنا نفكر بالخطوة اللاحقة، ثم «ما لبثنا أن قررنا أنه يجب أن نكمل الطريق إلى القنيطرة، لكي نرسل الفرسان الشركس في مطاردة الفاعلين، وهو أمر لم يحدث إلا بعد نصف ساعة من الحادث. وبالفعل ما لبثت أن لحقت بنا السيارات الأخرى. باستثناء سيارة الآنسة غورو التي أعيدت إلى دمشق من قبيل الحذر». فقد رأى أعضاء الموكب جثة الكولونيل بارنيت على الطريق فعرفوا أن شيئاً ما قد حصل. أما كاترو فقد أصدر أوامره بالهاتف لإقامة الحواجز، والتفتيش عن الرجال، «لكنني علمت في اليوم التالي أنهم اختبؤوا في إحدى القرى، ثم تسللوا في الليل إلى شرق الأردن».

يعود غورو ذلك المساء من القنيطرة في موكب أكثر حراسة ليلقى استقبالاً «عفوياً» في دمشق. وفي اليوم اللاحق، في جنازة بارنيت يهدد بأن هذه الجريمة لن تظل «دون عقاب». غير أن «هذا الوعد لم يتحقق إلا جزئياً» كما يقول لنا كاترو الذي يرى ظل الإنكليز في كل شيء وكل مكان وكل حدث، «ولم نستطع الوصول إلا إلى شركائهم القرويين السوريين الذين منحوهم المأوى».

وبالنسبة إلى كاترو: ليس هناك شك في أن «الذي دبر الاعتداء هو أحمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرف الذي لجأ إلى إربد. وأقام على الحدود نفسها، وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة وقرر المحاولة. كان يعتقد أن الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة إلى أهل الاستقلال في المشرق وفي العالم. ومن أجل هذا العمل جند أحمد مريود خمسة من الذين حصلوا على ثياب الدرك المستعملة، وحلوا محل أحد مراكز الحراسة، ثم أطلقوا النار (...)، لكن بعدما استطاعت سيارة غورو الفرار، نزلوا إلى الجثة الملقاة على الطريق، ظناً أو أملاً منهم بأن تكون جثة غورو. لكن عندما تبينوا خطأهم أخذوا معهم قبعة بارنيت، كدليل على أنهم أدوا مهمتهم.

«... وفيما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها، كان أحمد مريود في منزله في إربد، يتحدث ضد فرنسة، في حضور ضابط سياسي بريطاني سوف يعرف فيما بعد باسم اللورد رغلان. وكان أحمد مريود يتطلع في ساعته كل لحظة. وحين دقت الساعة التاسعة، نظر إلى الذين حوله وقال لهم : إنني أعلن لكم حدثاً مهماً، في هذه اللحظة الجنرال غورو قد مات. ثم أخذ يشرح لهم ما حدث أو ما اعتقد أنه حدث».

وقد تسلحت الحكومة الفرنسية بالكلام الذي قاله مريود، لكي تطلب اعتقاله بتهمة التحريض على قتل غورو، «ولم تكن تلك أول مذكرة احتجاج تقدم إلى السلطات البريطانية ضد اللاجئين السياسيين الذين يعملون ضد فرنسة. فقد سبقتها احتجاجات كثيرة، لكنها ظلت جميعاً من دون جدوى.... لكن هذه المرة لم يعد باستطاعة السلطات البريطانية الاستمرار في التجاهل، فأبعدت أحمد مريود عن أراضي الانتداب».

جرت محاولة اغتيال غورو في الوقت الذي قامت أيضاً التظاهرات الوطنية في دمشق بقيادة الدكتور شهبندر. وقد أظهر الحدثان «مدى عدم شعبية الانتداب الفرنسي» بالنسبة إلى عصبة الأمم المتحدة في جنيف. وهكذا أرسلت المنظمة الدولية من يحقق في أمور الانتداب. وفي ضوء هذه التطورات «تعمقت لدى الجنرال غورو قناعة سابقة بوجوب وضع حّدٍ لتفتيت سورية، وإعادة تركيبها ضمن إطارها الوطني، في ظل نظام اتحادي يلتف حول دمشق، العاصمة التاريخية. وهكذا تسرعت الحركة الإصلاحية التي كان قد فكر فيها. وطُبِّقَ في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر النظام الجديد الذي أعلن في حلب في 22 آب/أغسطس وعُيِّنَ أول رئيس للاتحاد السوري صبحي بك بركات. وهو شخصية من الشمال وأحد أبطال الحركة الوطنية الذين قاتلونا بالأيدي خلال أشهر طويلة».

ولا يخفي كاترو أن الغرض من تعيين صبحي بركات كان تهدئة الخواطر في الداخل و... عصبة الأمم في الخارج. وفي هذه الحقبة أيضاً ودع غورو دمشق، وبعدها سوف يودع المشرق كله. لقد قدم استقالته لخلاف مع حكومته حول الموازنة التي تخصصها لإدارة شؤون الانتداب.

لكن ما هي أهمية المنصب الذي كان يشغله غورو؟ ماذا كان يعني بالنسبة إلى الفرنسيين؟ لقد استقال غورو، يقول لنا كاترو، «بكل بساطة ومن دون مرارة، من منصب هو أحد أرفع المناصب في الجمهورية، ومن موقع كان فيه بمثابة نائب الملك!».

ونائب الملك هو اللقب الذي كان يعطيه الإنكليز لحاكم الهند «جوهرة التاج»، وبالتالي فإن سورية ولبنان كانتا بالنسبة إلى فرنسة، ما كانت الهند بالنسبة إلى بريطانية أيام الاستعمار.

لكن مع «الذي ذهب إلى الظل، قرر أيضاً أن يستقيل اللفتنانت كولونيل كاترو «أليس هذا أفضل تكريم نستطيع أن نقدمه له؟».

لكن قرار كاترو سوف يفاجئ الكثيرين «لأن شيئاً لا يدعوني للعودة إلى فرنسة، وواجبي العسكري لم يكن يحتم علي بعد التخلي عن مهامي السياسية. بل على العكس من ذلك، كان كل شيء يدعوني للبقاء في دمشق: أهمية المنصب الذي أحتله، مكانتي في الأوساط السورية، العمل الذي قمت به، وأهمية الأعمال التي تنتظرني. ولذلك تساءل الكثيرون عن الدافع الذي يجعلني أتخلى عن هذا المنصب المهم ـ منصب «ملك دمشق» كما وصفه الجنرال الإنكليزي كونغريف، الذي ألحق هذا اللقب بقوله: «لكنك لا تزال يافعاً على الملك» ـ إلى مركزٍ مُبْهَمٍ في إفريقية أو أوروبة.

«وعندما طرحت علي هذه الأسئلة، كنت أجيب إنني أتضامن مع الجنرال غورو وإنني جئت معه إلى دمشق، وأتركها معه. إنني مدين بكل شيء لثقته بي. لقد كان صديقاً وراعياً في الأيام الصعبة والأيام السهلة. لقد تبنى المبادرات التي اتخذتها، ودافع عن أفكاري، وسامح أخطائي، وأقر أسلوبي في العمل»... «ولقد اختلط قدر في سورية بقدري، ولذا لا يسعني إلا أن ألحق به وهو يتبعد.

... لقد تركنا في وقت عادت الأمور فيه إلى طبيعتها، واستطعنا تخطي الصعاب في علاقتنا مع السوريين. وإن إقامة الاتحاد حديثاً سوف تضع حداً للمشكلات، وتكون بداية علاقات سورية ـ فرنسية جديدة».

«هذه الأجوبة أعطيتها أيضا إلى الجنرال غورو، عندما طلب مني البقاء في دمشق من أجل. مصلحة فرنسة».

لكن بعد أيام كان غورو وكاترو يغادران على متن السفينة «الكسار»، وبقي غورو في أوروبة، أما كاترو فعاد في العام 1940 لكي يخوض ـ كأحد قواد الحلفاء ـ ما أسماه فيما بعد «معركة المتوسط» ويؤدي دوراً سياسياً مهماً في مسألة استقلال سورية ولبنان، لكنه لن يقطن «قصر الصنوبر» في بيروت، قصر الأحلام الذي تحدث عنه في حزن «عندما تركه الجنرال غورو لكي يسكن شقة متواضعة فى السان جرمان».

إدوارد سبيرس:
العباءة التي هَّربت ديغول!

«تعتقلون راشد المقدم، نعتقل كميل شمعون». هكذا قال الفرنسيون للإنكليز! وهكذا قال الجنرال السير إدوارد سبيرس في مذكراته.

«إنها لعبة إنكليزية» هكذا كان يقول الجنرال ساراي! أما ديغول فيقول لنا من عليائه، إنه خلال «المساومات في يالطة استطاع تشرشل أخيراً، أن يقنع روزفلت وستالين بأن يطلقا يده في دمشق وبيروت».

إنها حرب تاريخية لن تضع لنفسها نهاية أو حداً. ولا يزال الإنكليز والفرنسيون يخوضونها دامية هذه الأيام، ولكن بالأغاني أو بالصور الكاريكاتورية، وأكثرية الشعب البريطاني ظلت ترفض مد النفق عبر المانش، لكي لا تربط فرنسة ببريطانية براً، انتقاماً لموقف ديغول من دخول بريطانية إلى السوق في الستينيات. وفي الستينيات رفض ديغول دخول بريطانية انتقاماً من واترلو. إنه العداء الأبعد زمناً في تاريخ أوروبة. والذين يعتقدون أن العداء الألماني ـ الفرنسي هو الأكثر قدماً إنما عرفوا شيئا وغابت عنهم أشياء: من وليم الفاتح في إنكلترة وريتشارد قلب الأسد في فرنسة، من ملوك البلانتاجينه ومعركة إيانغور، من تلك المنافسة الشهيرة أيام الصليبيين، من دوق مالبورو وحملاته ضد لويس السابع عشر، من معارك وولف ضد مونتكالم في أعالي كيبك الباردة، من نابوليون وولنغتون وولسون، إلى الأمس القريب.

فالعداء الألماني. الفرنسي عداء عسكري حديث نسبياً، أما المسألة بين لندن وباريس فهي حكاية عداء وتنافس حول العالم وعبر التاريخ: من الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط مروراً طبعاً بأميركة وشبه القارة الهندية. لقد كان بالمرستون القائل إنه ليس لإنكلترة صداقات دائمة ولا عداءات دائمة. غير أن أكثر من عمل بهذا القول هم الفرنسيون.

ولقد عملوا به ضد أصدقائهم الألداء عبر القناة!

ولعل أبرز نتاج لهذا الصراع كان تلك العلاقة العصبية بين السير إدوارد سبيرس، وبين الجنرال ديغول! لقد عاش سبيرس في فرنسة، وهناك أجاد اللغة، وأحب الشعب والشمس وأشجار الجوز في الجنوب، بل إن شارل ديغول هرب إلى بريطانية تحت عباءة سبيرس، لكي يعلن من لندن «فرنسة الحرة»، لكن لم تلبث هذه العلاقة أن تحولت إلى علقم متبادل»، ولم يلبث سبيرس أن أصبح مثال الإنكليزي الذي يكره كل ما هو فرنسي، بما في ذلك زوجة الحاكم الفرنسي في لبنان، المسيو جان هللو!

تعاطى سبيرس مع زملائه الفرنسيين بالكثير من الأقنعة والكثير من القفازات: تعال متبادل، وكره متبادل، وانعدام ثقة حائل. وبين الاثنين، أي بين الإنكليز والفرنسيين، دار اللبنانيون دورتهم السياسية التي تتسارع حركتها مع تغير الدول. ويذهب بعض الناس إلى القول إن سبيرس هو الذي جاء إلى لبنان بهدية اسمها الاستقلال، نكاية في الفرنسيين، لكن شارل ديغول يقول لنا إنه هو الذي فعل ذلك. وينقسم اللبنانيون ـ كالعادة ـ حول تقييم حقيقة الدور الذي أداه الجنرال سبيرس: منهم من يمتدحه ومنهم من ينتقده. لكن كما أنه في إنكلترة ليست هناك عداوات ولا صداقات دائمة، فهكذا الأمر في لبنان، حيث نرى الشيخ بشارة الخوري وزيراً وسياسياً بارزاً في بدايات الانتداب، ثم رئيساً حين يشتد النفوذ البريطاني. ثم نرى الرئيس كميل شمعون مؤيداً للخوري رفيقه في الحزب الدستوري، وبعد ذلك نرى الاثنين على طرفي نقيض. لكن ليس من شك على أي حال في مدى انقسام اللبنايين خلال الانتداب، بحيث يروي لنا سبيرس أنه بينما كان نائماً ذات ليلة خريفية، وقد فتح نافذته، سمع صوت جسم كبير يسقط في الحديقة فوق «الشبكة المضادة للبرغش»، ثم عرفت فوراً وجه الرجل الذي سقط في الشبكة. لقد كان خليل، الابن الأكبر للرئيس، شاب بدين، وكان وجهه مغطى بالدماء، وأبلغني قوله: لقد قال لي والدي اذهب إلى الجنرال سبيرس وأخبره، ثم روى لي أن الجنود اقتحموا منزلهم، ودخلوا إلى غرفة نوم والدته المريضة (...)، وسعى هو (خليل) لأن يطلب طبيباً، غير أن الجنود ارتموا فوقه، وضربوه بأعقاب البنادق، ثم دفعوه على الدرج وهم يصرخون يا بن ... يا بن الإنكليز...».

ثم يتابع سبيرس ليقول لنا، من كان في الجانب الآخر من الصراع: «لقد كانت الساعة نحو السابعة، وقد اتصلت بـ «دكايسي» في القاهرة، وأخبرته بما حدث فلم يصدق، وقال إن الفرنسيين مجانين، وإنه يجب أن نفعل شيئاً ما على الفور. وفيما كنا نتحدث على الهاتف، جاءنا صوت«هللو» في الراديو، يعلن بكل خشونة أنه علق الدستور، وحل الحكومة، وعين إميل إده رئيساً للحكومة الجديدة».

لا بد من ملاحقة: فالجنرال سبيرس الذي توفي في العام 1974 عن 87 عاماً، ظل رافضاً أن يضع مذكراته حتى الأشهر الأخيرة من حياته، «لأنها تضر بأشخاص كثيرين»، وكان يقصد بالطبع (ديغول) في الدرجة الأولى. فهو لم ينس أنه كان الرجل الذي أمسك ديغول من ذراعه في مطار «بوردو»، ودفعه إلى الطائرة التي أقلته بعيداً عن القوى المستسلمة في فرنسة، لكننا سنكتشف أن التعالي المتبادل بين أهل الجزيرة وأهل القارة يتخطى بكثير معاتبة الوفاء ونكران الجميل بين جنرالين أحدهما ظل في حجم محلي، والآخر اتخذ العالم أجمع حجماً له.

هذا لا يعني طبعاً أن سبيرس كان ضئيلاً. إنه «رفيق تشرشل» منذ العام 1915. وذات يوم يقدم إليه ديغول صورته وقد كتب عليها: إلى الجنرال سبيرس، شاهداً وصديقاً وحليفاً». غير أن أحد الصديقين سيظل مفوضاً سامياً، بينما يصل الآخر إلى حكم فرنسة. ربما أيضاً ليس هناك الكثير من الدقة في تعبير «المفوض السامي»، فالرجل الذي أدّى أهم أدواره في الشرق بين العامين 1941 و1944. أصبح «رئيس البعثة البريطانية» في سورية ولبنان، بالإضافة إلى كونه «رئيس الفرنسيين الأحرار في المشرق سابقاً».

بعد وصول سبيرس إلى بيروت بأسابيع، يلقي ونستون تشرشل في مجلس العموم خطاباً حول سياسة لندن تجاه «دول المشرق» يقول فيه:

«ليست لدينا مطامع في سورية، إننا لا نسعى إلى الحلول مكان فرنسة، أو استبدال المصالح الفرنسية بمصالح بريطانية في أي جزء من سورية، إننا في سورية فقط لكي نكسب الحرب .. لكننا من جهة أخرى نعترف بأنه من بين جميع دول أوروبة، فإن

لفرنسة في سورية وضعاً مميزاً. وإذا كانت لأي دولة أوروبية أخرى مواقع مميزة في سورية، فيجب أن يظل موقع فرنسة هو المهيمن. إننا لم نذهب إلى هناك لكي نجرد فرنسة من موقعها التاريخي في سورية، إلا حيث يبدو ذلك ضرورياً للوفاء بالتزاماتنا وتعهداتنا تجاه السكان في سورية».

كان تشرشل يتحدث في أعقاب انتهاء «الحملة السورية»، أي سقوط قوات فيشي أمام الإنكليز و«الفرنسيين الأحرار»، ومن معهم من «قوات خاصة» أي مجنديين سوريين ولبنانيين، كذلك كان يتحدث بعد لقاء مطول في القاهرة بين ديغول، زعيم «فرنسة الحرة» غير المقيم في فرنسة، وبين وزير الدولة البريطاني أوليفر ليتلتون، تم خلاله تنظيم العلاقة بين فرنسة وبريطانية في المشرق! إنها علاقة لن تنظم أبداً.

وسوف ينسب الجنرال سبيرس إلى نفسه وإلى بلده، بصورة غير مباشرة، تفكيك الانتداب: «عندما غادرت الشرق الأوسط العام 1944 في نهاية مهمتي، كانت سورية ولبنان قد أصبحتا بلدين مستقلين، يتمتعان باعتراف جميع الدول الكبرى وجميع الدول العربية المستقلة، وعدد كبير من الأمم الأخرى.

هناك وجهان للمستر سبيرس، مثله مثل جميع العسكريين الذين تركوا أرض القتال في الحرب الكونية لكي يغرقوا في ليالي السياسة وأوحالها. هناك العسكري الصارم، وهناك الليالي الملاح في بيروت، وفلانة قالت وفلانة لم تقل، ومن سهر عند من؟ كيف؟ ولماذا؟...

عندما فقدت الملكة فيكتورية زوجها قالت: لقد فقدت «الرجل الوحيد في العالم الذي كان يستطيع أن ينادني فيكتورية». وها هو إدوارد سبيرس الرجل الوحيد الذي يستطيع القول في معرض الحديث عن ديغول: «أنا الذي أحضرته إلى إنكلترة في حزيران/يونيو 1940».

لكن هذا الذي يقول «أنا أحضرت ديغول»، يدخل أيضاً في عالم من الأشياء الصغيرة، ويروي لنا في مذكراته حكاية ليلة دعا فيها المسيو هللو وزوجته إلى العشاء في بيروت على شرف ملك يوغوسلافية: «جلست المدام هللو إلى جانبي في عشاء الملك

اليوغوسلافي. وقد لاحظت كم هي وسيمة بعكس زوجها التعس. لكنني إذ تفحصتها أكثر عن قرب، شعرت أنني أنظر إلى مخلوق اصطناعي تماماً، جليد متجمد ووجه من الطلاء، مثل منحوتة من منحوتات «ليموج»، تشعر وكأن أي نسمة ستحولها إلى حطام متناثر. وبدا جلدها مثل محرمة ورقية تعوم فوق مياه صافية. ورحت أضرع ألا يتعثر أحد الخدم ويصطدم بكرسيها، فيحطم هذا العمل الفني الجميل».

هناك الكثير من الثرثرة البيروتية المسلية في حياة سبيرس

«كنا نحضر، زوجتي وأنا» حفل استقبال أقامه المسيو هللو وزوجته، وقد وقف كلاهما يستقبل المدعوين. ومن بعيد رأيت سيدتين فرنسيتين بالغتي الجمال تصلان إلى الحفل. وكنت أعرف أن كلتيهما أكثر شعبية لدى الرجال الفرنسيين، مما هما لدى بنات جنسهما. وبدا واضحاً على الفور أن المسيو هللو هو الذي دعاهما، وليس زوجته، وقد عرفت لحظتها أن مقصلة ستسقط. لم تقل السيدتان كلمة واحدة، لم تأتيا بحركة واحدة، فقط وقفتا هناك تحت سطرة نظرة المدام هللو التي تبعث على الشك ثم استدارتا وذهبتا على أعقابهما».

لم يسلم أحد من أسلوب سبيرس اللاذع حتى ضيفه، ملك يوغوسلافية «ليلة عودة هللو إلى بيروت أقمت للأسف، حفل عشاء لملك يوغوسلافية. وكان الملك صبياً، صبياً صغيراً في ذوقه وفي حجمه، تسحره الأشياء التي تتحرك بسرعة (...) وقد ظل الملك عندنا تلك الليلة أكثر مما كنت أحب».

غداة تلك الحفلة، أي صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943. سوف يعيش لبنان فصلاً مهماً من تاريخه، نسمع رواية الجنرال سبيرس بحرفيتها: «بعثت إلى وزارة الخارجية هذا الصباح بالبرقية الآتية:

«في الرابعة من فجر اليوم اعتقل رجال الأمن العام رئيس الجمهورية ووزراءه جميعاً، باستثناء ثلاثة لم يتم العثور عليهم، واقتيدوا جميعاً إلى السجن برفقة رجال البحرية والجنود السنغاليين.

«ولقد اعُتقل الرئيس بالكثير من الوحشية في حضور زوجته المريضة، وضُرب ابنه بأعقاب البنادق، وحُبس في القبو وسط صرخات: يا بن الـ.... يا بن الإنكليز.

«كذلك اقتُحِم منزل رئيس الوزراء المسلم، ونقل عنوة من فراشه الزوجي. إن هذا وحده كاف لإثارة جميع السكان المسلمين.

«لقد أقدم هللو على حل المجلس بموجب مرسوم لم تتسنَّ لي قراءته حتى الآن.

«إن المدينة طبعاً في حالة غليان، وثمة إضراب عام متوقع، مع أنني أسعى بالتأكيد إلى الهدوء، وأنني نصحت الحكومة السورية بعدم القيام بأي خطوة، بانتظار أن أسمع منكم. لقد أبلغت وزير الدولة البريطاني، ودعوته إلى أن يدرس فكرة فرض الأحكام العرفية البريطانية.

إن هذا في رأيي يشكل الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون تظاهرات خطرة في هذا المنعطف العسكري الدقيق. لقد أظهر الفرنسيون أنهم متهورون تماماً.

«اتصلت بعد ذلك بـ «كايسي» في القاهرة، وطلبت منه أن يجمع ما استطاع من الصحافيين، بحيث يملأ طائرة كاملة منهم تكون في بيروت ظهر ذلك اليوم. لقد كنت أعرف أن الفرنسيين سوف يتظاهرون بأن شيئاً لم يحدث، وأن كل ما في الأمر أنهم أعادوا الأمن إلى نصابه بفضل استخدامهم القوة.

«... وعندما سمعت أن الجنرال دو لافالاد موجود في القاهرة، عرفت أن المسألة معدة منذ زمن. وإلا كيف يمكن لضابط فرنسي رفيع الرتبة، كجنرال، أن يظهر فجأة في القاهرة، وأن يعلن بكل تلك السلطة التي يتمتع بها، أن ما حدث ليس بذي شأن، في حين أن رئيس لبنان وحكومته في السجن؟ كيف لا يكون الأمر خطيراً والبرلمان قد حل، والطائرات الفرنسية تحلق فوق بيروت ملامسة السطوح؟!.

«عندما دخلت إلى بهو منزلي وجدته مليئاً بالناس. جاء أولاً المطران مبارك راعي أبرشية بيروت المارونية. كان يرتجف حنقاً وغضباً. إنه لأمر عجيب حقاً؟ الموارنة يقفون الآن خلف رئيس الحكومة المسلم. إن البريطانيين هم الذين ضمنوا استقلال لبنان، فماذا تراهم فاعلين الآن؟ إنه تحد للإنكليز وإهانة للبنان».

«وما كاد ينتهي ـ بسبب ضيق أنفاسه، لا لأنه فرغ من الكلام ـ حتى كان مفتي الجمهورية يصل، وكان المفتي (صاحب السماحة محمد خالد) أكثر هدوءاً من

المطران، لكنه أعرب عن غضبه بالكلمات نفسها: من المستحيل الآن رد الناس التي ستهاجم الفرنسيين بلا شك، وأضاف: بل إنهم بدؤوا ذلك فعلاً، وهناك بضعة سيارات فرنسية أشعلت فيها النار، والناس ترفع الحواجز على الطرقات.

«وبعد ذلك دخلت بخطى رشيقة السيدة الحسناء (زلفاء) شمعون، حنطية مثل سنبلة قمح تلمع في الشمس، وقد توهجت عيناها الزرقاوان الجميلتان. لقد اعتقل زوجها الوزير (المزعوم مؤيداً للبريطانيين) خلال الليل على أيدي بعض السنغاليين، ونقل إلى مكان تجهله. ثم تدفق زوار آخرون، إلى أن تبين لي أن جميع أعضاء الحكومة، ـ باستثناء اثنين ـ اعتقلوا، كما اعتقل عدد من النواب.

«وفي غضون ذلك أخذت شاحنات ملأى بالسنغاليين تجوب الشوارع، وبدا أن هؤلاء يستمتعون بما يجري، إذ كانوا يضحكون ويطلقون النار عشوائياً على المارة. وقد وقعت إصابات، كما أن جندياً فرنسياً أطلق النار على صبي كان يمزق إحدى ملصقات ديغول فأرداه قتيلاً.

«وقد أخبرني أيضاً أن شوارع بيروت بدأت تمتلئ فجأة بملصقات لديغول. ورأيت هذه الملصقات بنفسي، وإلى جانبها ملصقات أخرى تحمل صور ستالين. وكان لنا أن نستنتج أن روسية السوفياتية تؤيد ديغول.

«... ثم وصلت أنباء تقول إن عبد الحميد كرامي، الرجل الواسع الشعبية، قد اعتقل في طرابلس، فأبلغت لندن والقاهرة فوراً أن هذا الأمر سوف يثير سورية الشمالية».

هنا ينتهي النص الحرفي من كلام سبيرس، لكن لا بد من وقفة أو أكثر، هل حقاً كانت «روسية السوفياتية» تدعم شارل ديغول؟ إننا بعد ثلاثين عاماً سوف نرى الإعلام الأميركي يلجأ إلى التهمة نفسها، لكي يطعن في استقلالية ديغول، وسوف تصوره الكتب الدعائية عميلاً في الكي. جي. بي من دون أي تردد. لقد أمضى ديغول حياته في مواجهة الحلفاء، كما سنجد في فصل آخر.

لكن نعود إلى صالون سبيرس، وإلى اللبنانيين الذين تدفقوا عليه لكي يطلبوا دعم الإنكليز! هؤلاء اللبنانيون ماذا قالوا لديغول؟ فلنعُدْ إلى النصوص بحرفيتها إذاً يقول لنا ديغول في مذكراته الآتي:

«خلال الوقت الذي أمضيته في بيروت، أجريت اتصالات عدة كما هي التقاليد في الشرق الأوسط، حيث يعتبر من القسوة وقلة اللياقة اتخاذ القرارات من غير طلب المشورة والقيام بالزيارات اللازمة. وفي قصر الصنوبر حيث كنت أقطن، استقبلت عدداً من الزائرين

وقد أبلغني عدد منهم رغبتهم في أن تتخلى الدولة عن التزاماتها في بلدهم. غير أن كلاً من هؤلاء عين نفسه راعياً لهذه أو تلك من المصالح الخاصة. وقد أكد لي الجميع قناعتي بأنه بعد بلوغهما الاستقلال، فإن لسورية ولبنان ما يربحانه من الوجود الفرنسي ولن يخسرا شيئاً من ذلك.

«... وفي المكاتب الكثيرة التي زرتها، وفي أحواض السفن، وورش البناء، أكد الجميع أنه لا بد من المحافظة عليها (العلاقات الخاصة) بصرف النظر عن النظام الذي قد يقوم في المستقبل لمعالجة العلاقة السياسية بين باريس ودمشق وبيروت».

أيضاً نظل في النصوص لنأخذ من ديغول، رواية مقابلة لرواية سبيرس حول حل المجلس النيابي واعتقال حكومة بشارة الخوري، يقول : «... لكن للأسباب نفسها وجدنا أنفسنا مرغمين على المحافظة على التزامات معينة في المشرق، نتيجة لحالة الحرب. ومن خلال نظرة شمولية إلى النزاع العالمي توصلنا إلى قرار بأنه بإمكان حكومتي بيروت ودمشق الانتظار قليلاً قبل تسوية الشكليات الأخيرة، التي لاتزال تحد من سيادة بلديهما. ولم يكن هناك شك بأنهما كانتا ستقبلان بذلك لو أن لندن لم تشجع مطالبهما وتعرض مساعدة القوات البريطانية في فرض هذه المطالب.

«وفيما كان هللو في الجزائر أقدم المجلس اللبناني على تعديل الدستور، حاذفاً منه جميع الفقرات التي تشير إلى الانتداب، وكأنه لم يكن موجوداً، وأثناء عودته في طريق القاهرة أبرق من هناك إلى حكومة بيروت يبلغها أنه يحمل تعليمات من حكومته بفتح باب المفاوضات، ويطلب تأجيل تعديل الدستور. غير أن اللبنانيين تجاهلوا رسالته. وحين عاد هللو إلى بيروت، وأمام هذا الاستفزاز استخدم الفيتو الرسمي في وجه القرار في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، وعلق الدستور، وأمر بسجن رئيس الدولة اللبنانية ورئيس المجلس وعدد من الوزراء، فيما أصبح السيد إميل إده رئيساً موقتاً للجمهورية.

«... لذلك قررنا في اليوم الآتي، وبعدما أبلغنا بما حدث في بيروت، قررنا أن نرسل الجنرال كاترو إلى هناك، لكي يعيد الوضع الدستوري إلى طبيعته، ويكف يد هللو، وكان هذا يعني أن على كاترو ـ بعد إجراء المفاوضات ـ أن يطلق سراح الخوري والصلح ووزرائهما، ويعيد الخوري إلى منصبه. وبعدها يعاد تشكيل الحكومة والمجلس. وبما أنه لن يعود هناك مبرر لوجود مفوضنا في المشرق بعد وصول كاترو، فقد استدعيناه إلى الجزائر، ولكن متأخراً بضعة أيام.

«غير أن البريطانيين لم يستطيعوا القبول بالمصالحة. وقد أظهرت الأحداث التي لحقت فيما بعد أن لندن عازمة على صب الزيت على النار، بحيث يبدو ما اتخذناه من خطوات في لبنان وكأنه فرض علينا من قبل الإنكليز..».

نتوقف مرة أخرى...

لا لكي نقرأ في مذكرات سبيرس أو في مذكرات ديغول، بل في مذكرات الشيخ بشارة الخوري، وفي الجزء الثاني من «حقائق لبنانية» التي قدم لها ذلك الديبلوماسي العريق فيليب تقلا، يؤكد لنا الرئيس اللبناني الراحل ما رواه سبيرس عن ذلك العشاء مع المسيو هللو. ثم يؤكد لنا أن المطران مبارك ذهب إلى سبيرس لكي يعترض على اعتقال رجال الاستقلال، ولا يحدثنا عن ذهاب ابنه، الشيخ خليل، إلى الوزير المفوض البريطاني، لكنه يروي أن زوجة سبيرس اتصلت بزوجته تلك الليلة، ودعتها إلى المبيت في المفوضية البريطانية خوفاً من السنغاليين! وهكذا حصل.

سوف تكون تلك الليلة، أي ليلة 12/11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943، فاصل المجد في حياة بشارة الخوري ورياض الصلح . إنها بالنسبة إلى الاثنين، ليست مجرد فصل في مذكرات، إنها الفصل الأساس في حياة كاملة. ولذلك كان عنوان ذلك الفصل في مذكرات بشارة الخوري بكل بساطة: راشيا!

إذاً يعتقل الرئيس وحكومته وبعض الوطنيين الآخرين، وينقلون إلى قلعة راشيا. وتوفد حكومة فرنسة الحرة الجنرال كاترو ـ الذي يكن له الخوري كل اعتبار ـ لتسوية المسألة، فيطلب كاترو على وجه السرعة مقابلة سجينه. وتحت عنوان «السجان والسجين» نترك الكلام للشيخ بشارة:

«... وبعد لحظات دخل الجنرال كاترو وحيّاني بكل لباقة واحترام، واعتذر عن إزعاجي بزيارته في بيروت وعن تأخره الوجيز، ودعاني إلى البهو الكبير، وأجلسني على «دشك» عالٍ، وجلس بجانبي، ثم قال:

«اسمح لي يا فخامة الرئيس قبل كل شيء أن أعبر لك عن أسفي لما جرى، وعن سوء المعاملة التي لقيتها من المسيو هللو، ويسرني أن أخبرك أن المسيو هللو قد أقيل من وظيفته، وسيعود إلى الجزائر في الوقت المناسب. والآن أطلب منك أن تقص علي سلسلة الحوادث التي مرت على لبنان منذ تركي إياه في الصيف الماضي.

«قلت: تعلم يا حضرة الجنرال أن المسيو هللو قد تدخل في الانتخاب، مخالفاً وعدك الذي قطعته لي في فندق الشقيف (بحمدون) في المقابلة الأخيرة التي جرت بيننا. وبدا تدخله سافراً، مفضوحاً، قاصداً إقصاء العناصر الوطنية ـ وأنا في رأسها ـ عن المجلس، ولكنه لم يفلح. وانتخبت للرئاسة كما تعرف، ودعوت رياض الصلح ليرأس الوزارة، وكلانا يسعى إلى خدمة بلاده لتحقيق أمانيها بالاستقلال التام الناجز، وفقاً للتعهدات التي قطعت لنا من جانب الحلفاء، ووفقاً للبيان الذي أذعتموه حضرتكم بلسان لجنة التحرر الفرنسية يوم رجعتم إلينا في صيف 1941 تقودون قوى فرنسة الحرة. وقد تضمن البيان الوزاري عهداً صريحاً بأن تتقدم الحكومة إلى المجلس النيابي في أقرب وقت، بمشروع تعديل للدستور يجعله منسجماً مع مقتضيات ذلك الاستقلال..

«فقاطعني الجنرال كاترو سائلاً: وما الذي جعلكم تستعجلون الأمور، وتستبقون رجوع المسيو هللو من الجزائر، وهو يحمل إليكم مقترحات جديرة بالقبول، وقد سبق له قبل سفره أن اجتمع إليكم وإلى رياض الصلح في شتورا، واستمهلكم إلى حين عودته فأمهلتموه على ما أعلم.

«قلت: جرى ما تفضلتم به، إنما أمران جعلانا نشك بحسن نية المسيو هللو: كتاب صدر منه، بعد سفره، ينكر علينا حق تعديل الدستور وحدنا بمعزل عن فرنسة، وقد أجبنا عليه في حينه ولم نحرك ساكناً. أما الأمر الثاني: فهو صدور بيان لجنة التحرر

الفرنسية في الجزائر في 5 من تشرين الثاني/نوفمبر، منكرةً علينا، هي أيضاً، حق التعديل إنكاراً باتاً لا يقبل الجدل، وزاد في الموقف حرجاً أن المندوبية الفرنسية أذاعت البيان على الصحف قبل أن تبعث به إلى الحكومة وإليَّ، خلافاً لكل عُرْف، الأمر الذي أثبت لنا أن غايتكم هي وضع الحكومة اللبنانية أمام الأمر الواقع، وقطع السبل عليها، وشل عملها الدستوري. وهذا هو السبب الذي استعجل. تقديم مشروع التعديل الدستوري. إن بيان لجنة التحرر قلب الأمور ظهراً على عقب، وحلنا من انتظار المسيو هللو.

«قال الجنرال كاترو: أما وقد جرى ما جرى، أفلا تظنون يا فخامة الرئيس أن سيطرة النفوذ البريطاني أوصلتنا إلى المأزق، فدفعتكم بريطانية إلى هذا الموقف واعتنقت وجهة نظركم، وهي تمطرنا كل يوم بإنذارات سياسية وعسكرية لإعادة الأوضاع اللبنانية إلى نصابها؟ وها هو المستر كايسي وزير الدولة البريطاني المكلف بشؤون الشرق، قد حضر من القاهرة إلى بيروت ليتولى تبليغي هذه الإنذارات.

«قلت : لم تتدخل بريطانية في طلب تعديل الدستور، ولا في إقرار هذا التعديل. فالعمل الذي قمنا به كان لبنانياً بحتاً، وضمن نطاق صلاحيتنا الدستورية، دون أي تشويق من الخارج. وإذا كنتم حضرتكم تلمحون إلى أن رئيس الجمهورية وحكومته والمجلس يهدفون من وراء هذا كله إلى إقصاء فرنسة واستبدال انتداب آخر بانتدابها. ـ وبكلمة أصرح: انتداب إنكليزي ـ فأنتم على خطأ، نحن طلاب استقلال كامل، ولا نرضى بديلاً عنه، ولا انتقاصاً منه، على يد أي دولة.

«سكت الجنرال كاترو دقيقة، ثم قال : لنبحث الآن أموراً عملية. إن المهمة التي أوكلها إليّ الجنرال ديغول ولجنة التحرر تخولني حل الحالة الحاضرة حلاً حاسماً. لا أنكر عليكم أن جميع اتصالاتي بالشخصيات التي اجتمعت إليها منذ وصولي إلى لبنان، أثبتت لي إجماع الناس على تقديركم واحترامكم، وعلى طلب، عودتكم إلى الرئاسة في أقرب ما يمكن، وهذا أمر مفروغ منه عندي. وقد أبلغت رأيي إلى حكومة الجزائر. غير أن لي مطلبين من فخامة الرئيس: الأول يتعلق بالوزارة فإن حكومتي ترى أنه من الضروري إقالتها تعويضاً من كرامتنا، والثاني يتعلق بالمجلس النيابي، ونرى أيضاً وجوب حله وانتخاب سواه، فهل لكم ما يقال في هذا الشأن؟

«قلت: يا حضرة الجنرال، أعلن بكل صراحة أنه لا يسعني إجابة أي مطلب من المطلبين، ذلك أنني رئيس دستوري. أضف إلى هذا أنني وافقت على كل سطر من سطور البيان الوزاري الذي نال رياض الصلح رئيس الوزارة ثقة المجلس النيابي على أساسه، والذي اقترحته على المجلس وفقاً لسلطتي الرئاسية المستمدة من بنود الدستور. والمجلس عينه أقر المشروع المقترح مني برضى الحكومة ومعرفتها، فكيف يكون بوسعي، والحالة ما ذكر، أن أقيل الوزارة أو أحل المجلس، وأنا متضامن معهما في جميع تلك التدابير؟ فخلاصة القول، ولن أزيد : إما أن نخرج جميعنا من قلعة راشيا كما أدخلناها، وإما أن أرجع إلى الاعتقال مع رفقائي إلى أن يمن الله علينا بالفرج!.

«أطرق الجنرال كاترو، وفكر ملياً قبل أن يستأنف الحديث، ثم قال:

«أليس بإمكان رياض الصلح رئيس الوزارة أن يوجه إليَّ كتاباً يبين فيه أن ما قام به من الأعمال لا يستهدف الإساءة إلى فرنسة، فيكون هذا الكتاب بمثابة تلطيف لنا. وهل يصعب أن تتخذ فخامتكم تدبيراً بإرجاء دورة المجلس النيابي أربعة أشهر، يخف أثناءها التوتر القائم في علاقة البلدين فتمكننا هذه الفترة من تدبير الأمور؟

«قلت: أما فيما يتعلق بالكتاب، فالرأي فيه لرئيس الوزارة نفسه. وفي نظري أنه عمل غير مناسب، لأنه يفترض إساءة لم تخطر على بال أحد منا. أما فيما يتعلق بإرجاء دورة المجلس فلا أكتمك أن الأمر مستحيل، فالدستور يمنح رئيس الجمهورية حق إرجاء افتتاح الدورة العادية للمجلس شهراً واحداً، والدورة مفتوحة اليوم، فلا يجوز لي دستورياً تأخيرها بصورة من الصور.

رجع الجنرال إلى التفكير والتأمل، ينظر إلي تارة وإلى الأرض طوراً، ثم قال:

«هل يزعجكم أن تعلموا رياض الصلح رغبتي بالاجتماع به هنا غداً مساء. لأبحث معه قضية الكتاب المذكور وغيرها من الشؤون. وسأتخذ التدابير اللازمة لانتقاله من راشيا إلى بيروت؟

«قلت: لا يسعني ذلك لأن «الاختلاط» ممنوع بيني وبين رياض الصلح وسائر المعتقلين، فأرجو أن توصل إليه الخبر بواسطة الضباط الذين رافقوني.

«فبدت على وجهه علامات التأثر وقال بحدة: ممنوع «الاختلاط»! ممنوع «الاختلاط»! ما معنى هذا التدبير الاعتباطي؟ هل أنتم مجرمون! أنا لا أقبل بذلك، وسأعطي الأوامر القاطعة بالسماح لكم بمقابلة بعضكم بعضاً، ابتداءً من صباح غدٍ، إلى أن يصدر الأمر بالإفراج عنكم جميعاً.

وسكت لحظة ثم أردف: أظن أن الإفراج سيقع حتماً يوم الأحد في 21 من تشرين الثاني/نوفمبر، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان، وسأقابل فخامتكم إثر خروجكم من راشيا. ولا شك عندي في أننا سنصل إلى تفاهم تام على جميع القضايا».

بالفعل تم التفاهم. لكنه تفاهم من النوع الإرغامي، يربح منه لبنان الاستقلال، ويخسر الفرنسيون انتداباً أساسياً بالنسبة إليهم في تلك الزرقة المتوسطية الرائعة، ويحقق الإنكليز فوزاً.. بالنقاط على جيرانهم الألداء.

كان كاترو عسكرياً وسياسياً، من النوع الممتاز، كما يقول لنا الشيخ بشارة، لكن سبيرس سوف يظل حائراً بين الجانب الصغير من السياسة والجانب الصغير من العسكريتاريا. ويبدو من مذكرات نقولا بسترس أن الرجل كان بين الذين عرفوا سبيرس عن قرب. ويروي لنا بسترس كيف أن الجنرال البريطاني جعله يجلس متخفياً وراء صخرة في منزله في عالية، لكي يتنصت إلى ما سيقوله سبيرس من كلام لزائريه البارزين:

«وصلت إلى منزل الشيخ بشارة الذي كان بانتظاري على أحر من الجمر، ما أن وصلت حتى بادرني قائلاً:

«لست أدري ماذا يحصل. الجنرال سبيرس يريدك بأقصى سرعة، لقد أعطى تعليماته وسيدعونك تدخل .. اقرع على نافذته وسيرد عليك.

وبالفعل هذا ما حدث، ففتح لي الجنرال سبيرس الباب، وهو في ثياب النوم .. وأخبرني بتفاصيل الحديث مع جان هللو، وقال لي إنه مصمم على استدعاء السيدين إميل إده وجورج تابت في اليوم التالي... ثم أضاف: «نقولا، اذهب وأخبر الشيخ بشارة الخوري بكل هذا.. ثم عد إلى هنا نهار غد حيث ستستمع إلى وقائع حواري مع السيدين

إده وتابت... الحديث بيننا سيدور على الشرفة، وأنت ستقبع خلف الصخرة. لا يمكن لأحد أن يراك، في حين أنك ستتمكن من التقاط الحديث كلمة كلمة.

«في الواقع هناك صخرة جبارة أمام شرفة فيللا مجيد أرسلان، وهي صخرة تحجب الرؤية، وتزعج في أوقات كثيرة، لكن هذه المرة، على الأقل، لن تزعجنا هذه الصخرة إنما ستكون مفيدة.

«وفي الساعة الثامنة صباحاً كنت أحتل الموقع الذي حدده سبيرس خلف الصخرة الشهيرة. الجنرال بضيافته المعهودة، طلب أن توضع أمامي طاولة ومقعد ومجموعة صحف وإبريق ليمونادة.. وجلست أنتظر، وما هي إلا لحظات، حتى وصل جورج تابت فقال له سبيرس:

«أنت لم ترشح نفسك للانتخابات النيابية، لن تصبح إذاً نائباً، ومن ثم لا يحق لك التطلع إلى رئاسة الجمهورية. انتهى الموضوع!

بعد دقائق أعلن عن وصول إميل إده. ومن دون أي تحفظ توجه إليه سفير بريطانية العظمى قائلاً:

«بالأمس جاءني السيد هللو وأخبرني بتفاصيل حديثك معه. فأجبته بأنني نظراً لكوني الشخص غير الصالح لتلقي هذه الأخبار، أنصح بأن ينقل كلامك إلى البطريرك الماروني. ما هي علاقتي بالموضوع؟ بالمقابل، وفي ما يخصني، أنا أؤكد لك بأنني سأكسر الانتخابات وألغيها إذا ما تم انتخابك رئيساً للجمهورية. هل هذا واضح؟ «وانتهت المقابلة بسرعة واستدعاني بعدها الجنرال سبيرس قائلاً:

«تعال يا نقولا سنجلس هنا لنتحدث قليلاً. «كنا جالسين قبالة البحر، والرؤية تمتد مرتاحة من عالية حتى بيروت. جلبوا لنا قهوة وليمونادة... نرتشف وننظر إلى البحر بصمت. كنا نشهد تحركات الموج مع البقع الزرقاء أو الخضراء التي تنتج منها على صفحة الماء... بقع ملونة تتشابه وتندفع لتحيط ببقعة بيضاء صغيرة ... قطع الجنرال سبيرس الصمت، وقال:

«... سنستعيد شريط الأحداث والمرشحين. انظر أمامك جيداً، تطلع إلى البحر لترى تلك البقعة البيضاء الصغيرة المحيطة ببقع زرقاء أو خضراء كبيرة .. هذا هو لبنان : البقعة الصغيرة أما البقع الأخرى فهي : فلسطين، الأردن، العراق، مصر، سورية... في هذه الأماكن سيصبح نفوذنا كبيراً للغاية. إنها البلدان الموضوعة تحت الرقابة البريطانية.. فإذا ما كنتم مصرِّين على البقاء تحت الوصاية الفرنسية مثل هذه البقعة الصغيرة.. فهذا شأنكم. ولا أستطيع أن أؤثر فيكم في هذا الاختيار. ولكن ما أجد من واجبي أن أقوله هو أنكم ستجدون أنفسكم معزولين تماماً إذا ما حصل أي نزاع عسكري بين إنكلترة وفرنسة.

«صمت سبيرس قليلاً ثم أضاف:

«حتى القمح لن تحصلوا عليه، لأن سورية ستتخذ موقفاً متناسباً مع سياستنا. ستصبحون وحدكم مقطوعين عن العالم.

«طبعاً إذا ما كنا نريد أن نتخذ من الأمواج مثالاً، فإن هذه العزلة كانت واضحة تماماً... لم يترك لي محدثي مجالاً للتفكير، بل سارع يقول:

«لهذه الأسباب يا نقولا أرى من مصلحة لبنان أن يقف إلى جانبنا، وأنا أعرف أن بشارة الخوري مهيأ أكثر من غيره لهذا الاتجاه.

«صمت جديد لا يطول، إذ يعاود سبيرس إطلاق أحكامه القاطعة، ويقول:

«لننظر الآن، يا نقولا في لائحة أسماء المرشحين للرئاسة. لقد سمعت ما قلته الآن لكل من جورج تابت وإميل إده، لا حاجة للرجوع إلى موضوعهما، فترشيحهما أصبح غير ممكن. أما بالنسبة إلى ألفرد نقاش فأنا أعتقد أنه رجل جيد، ولكنه واقع كثيراً تحت تأثير اليسوعيين. لذا ليس ألفرد نقاش الرئيس المطلوب.

«ووقفة جديدة، وجرعة ليمونادة، واستكمال للتقويم:

«لنأخذ مثلاً أيوب تابت، فعندما أذهب إلى السراي يقول لي: «أعط الأوامر للحراس ليصطفوا من أجل التحية لأنني «رجل ديموقراطي»، ولكن هذا التصرف

لا علاقة له بالديمقراطية. الحرس لا يؤدون التحية لشخصي، وإنما للنجوم التي أحملها على كتفي كجنرال. هذا واجب، وهو أمر معمول به في كل العالم. ثم عندما أتطرق مع أيوب تابت إلى المسائل المهمة التي تتعلق بشؤون الدولة، يسارع إلى وضع يده على جبينه ويقول: رأسي يؤلمني!

«وانتقل سبيرس إلى اسم آخر، وهو الذي يعرف مدى الصداقة القديمة التي تربطني بهذا المرشح، فقال:

«بترو طراد صديقك، ولكنني على الرغم من ذلك أصر على أن أفهمك بأنه ساذج! لا يعرف مثلاً أن عيوننا مبثوثة في كل مكان. أذهب أحياناً لزيارته لأعطيه بعض النصائح من أجل لبنان. وما أن أنهي الحديث، وأكون مازلت على الدرج، حتى يسارع إلى الاتصال بعملاء المكتب الثاني التابع للمندوب السامي، ويستدعيهم لزيارته من أجل أن يخبرهم بما قلت حرفياً. قبل أن أزوره في كل مرة، أعرف أن كلامي سيصل إلى الفرنسيين، ويؤكد لي عملائي ذلك. لهذه الأسباب لا أرى أن بترو طراد يستطيع أن يصبح رئيس دولة جاداً...

انتقال جديد إلى مرشح آخر وأخير.

«أعرف أيضاً يا نقولا أنك تأتي لتدافع عن قضية الشيخ بشارة الخوري، وتدعم ترشيحه، تتمنى أن تراه رئيساً للجمهورية، وأنا أشاطركم هذه الأمنية. لكن هل يستطيع بشارة الخوري الصمود في وجه الفرنسيين؟ أخشى ألا يتمكن من ذلك!

بالطبع أخذت أدافع عن الشيخ بشارة مؤكداً أن الفرنسيين لن يدعوه أبداً يقدم ما عنده، وأنه رجل فريد يتمتع بحيوية فائقة وبثبات نادر..

وقاطعني سبيرس ليقول:

ـ نعم إنه سياسي ممتاز، لكن عنده عائلة عديدة الأفراد..!

فهمت الإشارة، فأخذت أؤكد لسبيرس أن الشيخ بشارة لن يدع عائلته تؤثر فيه».

يقول لنا الشيخ بشارة في معرض التلميح إلى الآخرين ـ وبكل اعتزاز ـ إنه براء من الدعم الفرنسي، مالياً وغيرة»، لكن لا شك في أن الشيخ قد نال بعض التأييد من مندوب صاحب الجلالة، إذ يقول لنا نقولا بسترس ببساطته وعلى سجيته البسترسية البيروتية المعروفة:

«وذهبت وكان الشيخ بشارة ينتظرني على نار متأججة، فنقلت إليه كل الوقائع، مما أدخل إلى قلبه فرحاً عظيماً. وكان هذا الفرح يتأكد يوماً بعد يوم، لاسيما وأن الجنرال سبيرس كان يسخِّر كل قدراته من أجل الإيفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه بدعم الشيخ بشارة..

«أعرف الآن أن كثيرين ممن عايشوا تلك الحقبة قد يقولون إن سبيرس لم يكن مستقراً نهائياً على دعم الشيخ بشارة، ويستندون في هذا الاعتقاد إلى كلام قاله سبيرس لهللو جاء فيه: «إذا لم نتمكن من الاتفاق على إيصال بشارة الخوري إلى الرئاسة، فإن مرشحي سيكون كميل شمعون. في الحقيقة، أقول إن سبيرس لم يكن يفكر في شمعون أبداً. كان مئة بالمئة مع الشيخ بشارة، لكنه طرح اسم شمعون للمناورة من أجل الوصول إلى تأكيد وصول الشيخ بشارة، فسبيرس لا يجهل أبداً أن الفرنسيين لا يريدون أن يروا شمعون رئيساً للبلاد، لأنه ينتهج بوضوح سياسة قريبة من لندن، وعندما لوح سبيرس باسم كميل شمعون، إنما فعل ذلك من أجل دفع الفرنسيين إلى القبول بأهون المؤيدين لبريطانية!

قلة هم الذين أدركوا حقيقة المناورة يومها. حتى كبار الساسة، فإنهم انجرفوا مع التقديرات، ومنهم هللو نفسه وهنري فرعون ... الرئيس شمعون أيضاً، وأيضاً يجب أن يقول حتى الآن «في العام 1943 نمت ذات مساء وأنا رئيس للجمهورية» بالنسبة إليّ أستطيع أن أؤكد وبحزم، أن إدوار سبيرس لم يكن ينوي أبداً التخلي عن دعم الشيخ بشارة. والدليل على ذلك أن التهديد البريطاني قد نجح، فذهب الفرنسيون إلى الشيخ بشارة الذي استقبلهم برفقة موسى مبارك. وفي هذا اللقاء أكد له الفرنسيون أنه مرشحهم للرئاسة الأولى!

مصطفى كمال:
من حلب إلى الأناضول

كيف يمكن أن تكتب سيرة مصطفى كمال، أو كمال أتاتورك، أو الغازي كمال، أو بكل بساطة، «أتاتورك»، أب تركية؟ ثمة مداخل كثيرة إلى حياة الرجل الذي انقسم العرب حوله ولا يزالون، الرجل الذي انقسم حوله العالم ولايزال، والرجل الذي انقسمت حوله تركية ولا تزال.

لكن في الشرق، بلاد الأقدار الكبيرة، تبدأ سيرة مصطفى كمال الحقيقية، وفي الشرق أيضاً سوف يضع الرجل خاتمة الإمبراطورية التركية، ويقلص هذه المساحات العثمانية الشاسعة إلى دولة عادية، نصفها في أوروبة ونصفها في آسية. بل هي، تركية، سوف تفقد كل شيء، لكنها ستظل تملك ذلك النجاح التاريخي الذي لم يستطع أن يجردها منه أحد: إنها البوابة البحرية التي يمر تحت قناطرها الشرق والغرب معاً.

لقد دخل مصطفى كمال، الرجل الذي سوف يصبح الأكثر أهمية بين «جنرالات الشرق»، دخل الجيش ضابطاً صغيراً وهو يحلم بانتصار الإمبراطورية، لكن ها هي الإمبراطورية الهرمة تتكاثر عليها الحروب والثورات، ويدب فيها الوهن الاقتصادي، فتبدأ بالانهيار.

وإذ أخذت الحرب العالمية الأولى تسير نحو ذروتها، كانت تركية تعتمد أكثر فأكثر على العامود الفقري في الإمبراطورية، أي العالم العربي، من سواحل المتوسط السوري إلى سواحل البحر الأحمر. لكن هنا أيضاً، في قلب العالم العربي، سوف تكتب خاتمة الاستعمار التركي. وفيما الحرب العالمية تتأجج، تلّفت الأتراك حولهم، فرأوا مكة المكرمة تشتعل، والخيول العربية تصهل من دون استراحة. وفي العام 1917 فقد الأتراك بغداد، فهب الزعيم التركي أنور باشا يطلب المساعدة من حليفه الألماني الأول المارشال «ليمان فون ساندرز». لكن فون ساندرز كان دقيق المعرفة بأحوال المنطقة

ووضع الجيش التركي، فحذر من القيام بهجوم معاكس لاستعادة بغداد. لكن القرار كان قد اتُّخذ. وسار الجنود الأتراك والألمان جنباً إلى جنب نحو عاصمة العراق، في كتائب عرفت «بجيش الصاعقة»، بقيادة الجنرال فالكنهايم. وفي تلك الفترة استدعي مصطفى كمال من جبهة القفقاز، وسُلِّم قيادة إحدى كتائب ذلك الجيش، وكانت متمركزة قرب حلب.

ويشاء سوء حظ الأتراك والألمان معاً أن تدب الفوضى بين الفريقين. فقد تذمر قائد البعثة الألمانية من المعاملة التي لقيها من الأتراك. أما مصطفى كمال الذي أنشأ علاقة ممتازة مع ليمان فون ساندرز، فإنه سرعان ما تشاجر مع فالكنهايم، وإذ زاد الخلاف بين القادة العسكريين، عرف أتاتورك أن الجيش مقبل على كارثة، كما عرف شيئاً آخر: إنه الرجل الوحيد القادر على التمرد على هذا الوضع، حتى لو أدى ذلك إلى إحالته إلى المحاكمة العسكرية! وهكذا استقال من قيادة حلب، ورفض المشاركة في «المغامرة»، غير أن القيادة العليا لم تلجأ إلى المحاكمة، بل أمرت بدلاً من ذلك بإعادته إلى جبهة القفقاز. وحاول ضباطه إقناعه بالعدول عن موقفه العنيد، لكن دون جدوى. وخشيت القيادة السياسية في إسطنبول أن تكون هناك مضاعفات كثيرة لما حدث، فقررت أن تغلق المسألة بإعطاء أتاتورك إجازة مرضية غير محدودة.

وهكذا وجد العسكري المتمرد نفسه في حلب من دون أي مال على الإطلاق. وصحيح أنه كان يملك مجموعة من الخيول العربية الرائعة، لكن من كانت لديه القدرة على شراء مثل هذه الخيول في تلك الأيام. وراح مصطفى كمال، الفارغ الجيوب، المليء باليأس.. و.. الأحلام يفكر في حل ما. وفجأة هب إلى مساعدته، لسبب ما، صديقه القديم جمال باشا فأعطاه مبلغ خمسة آلاف ليرة ثمناً لعشرة خيول! لقد أصبح باستطاعته الآن أن يعود إلى إسطنبول.

في المدينة القلقة لم يلق مصطفى كمال الاستقبال الذي كان يحلم به، بل الاستقبال الذي كان يخشاه. ولعل أكثر الناس غضباً عليه كانت زبيدة هانم، التي أساءها أن يتمرد ابنها على الجميع، وأن يحول كل رؤسائه إلى أعداء، وأن يدمر حياته العسكرية. واستغلت زينب هانم المناسبة لكي تؤنبه كما كانت تفعل يوم كان طفلاً. ولم يستطع

طبعاً أن يجيب، ولا أن يدافع عن نفسه، فقد تمرد بادئ الأمر على السلطان، وها هو الآن يتمرد على الهيئة الحربية العليا. لا، زبيدة هانم لا تتحمل هذا كله.

غير أن مصطفى كمال كان دائماً أكثر سعادة حين يكون وحيداً. فقد كانت محيطات وبحار تفصله عن أفكار أمه. وعندما حاولت بقية العائلة أن تفرض عليه إرادتها أيضاً، خطر له أنه لا بد من وضع حد لكل هذه الأمور، فالرجل كان قد اتخذ قراره الكبير ولن يعود عن الطريق التي رسمها لنفسه. وبما أنه لم يكن يريد أن يؤذي شعور أمه بمناقضتها، فقد قرر أن الحل الأفضل هو أن يترك البيت. وهكذا انتقل إلى غرفة في أحد الفنادق، وراح يتأمل في مصيره... وفي مصير تركية! وفي غضون ذلك حدث ما توقعه هو وليمان فون ساندرز، إذ أخفقت الحملة لاستعادة بغداد: المناخ الصحراوي الصعب، والإهمال الشديد لخطوط المواصلات، وصعوبة وصول المؤن... هدمت كل شيء. ومرة أخرى سقطت أرواح، كان في الإمكان تجنب سقوطها، ومرة أخرى تلقى الأتراك وحلفاؤهم هزيمة كانوا في غنى عنها.

وفي خريف 1917 استعاد الإنكليز المبادرة الهجومية في فلسطين. ودارت حول غزة معركة طاحنة، انتهت بهزيمة الإنكليز (راجع الفصل عن اللنبي)، غير أن الانهيار خلف الجبهة التركية كان يزداد سوءاً: لقد انضمت فلسطين وسورية إلى الثورة العربية.

حل ربيع 1918

وفي إسطنبول صدرت الأوامر إلى مصطفى كمال لكي ينضم إلى حاشية وريث العرش، الذي كان على وشك القيام بزيارة إلى المقر الألماني الإمبراطوري، وشعر مصطفى كمال بفرح داخلي شديد: إنها الفرصة المثلى لكي يتعرف عن قرب إلى السلطان المقبل! لكن اللقاء الأول بين الأمير محمد وحيد الدين ومصطفى كمال لم يكن ودياً تماماً. غير أنه ما إن قطع القطار مسافة قصيرة وأصبحت إسطنبول بعيدة خلفهما، حتى خلع الأمير قناعه، وتحول الرجل الناعس العابس إلى رجل مليء

بالحيوية. ولم تمض دقائق على المحادثة بين الرجلين، حتى كان مصطفى كمال يكتشف أنه أمام واحد من أكثر الناس ذكاء. أما الأمير نفسه فشعر أيضاً أنه أمام رجل مقبل على دور كبير، فراح يعامله بكل كياسة واحترام.

هل كان الاثنان يعرفان ـ وهما يجلسان في المقصورة وجهاً لوجه ـ أنهما سوف يصبحان ذات يوم من ألدِّ الأعداء؟ هل كان الأمير وحيد الدين يعرف أن مصطفى كمال نفسه سوف يطرده من بلاده ذات يوم متهماً بالخيانة؟

كان مصطفى كمال في تلك المرحلة قد فقد كل أمل في النصر، وكان قد اقتنع أنه لم يعد بإمكان ألمانية أن تقدم لتركية أي مساعدة مجدية، لأنها سوف تنهمك في حل مشاكلها الخاصة. وعندما وصل الموكب إلى المقر الألماني في «سبا» كان الجو مكهرباً منذ البداية. فالقيصر الألماني تذمر بوضوح من كثرة الأسئلة والشكوك التي طرحها الجنرال التركي مصطفى كمال، وزاد من تضايقه شعوره بأن هذا الجنرال قد ترك تأثيراً كبيراً في ولي العهد، وزرع في نفسه الشكوك ذاتها.

كان على مصطفى كمال أن يختار بين أمرين: إما أن يواجه واقعاً مريراً وهو أن الإمبراطورية تحولت إلى خرائب، وإما... أن يتعامى عن الأمر، لكنه لم يكن من النوع الذي يستطيع أن يتجاهل ما يحدث حوله. وها هو يتيقن الآن أن طموحات أنور باشا السياسية قد أفقدت تركية كل شيء، بما في ذلك خيرة الرجال.

كان هناك أمل واحد الآن، وهو أن تحقق ألمانية انتصاراً كلياً مطلقاً على الجبهة الغربية. وكان أنور باشا واثقاً من إمكانية مثل هذا الانتصار، أما مصطفى كمال فلا. وهكذا راح يطرح على القيصر أسئلة دقيقة ومزعجة... لكنها بقيت دون جواب.. وشعر بالحاجة إلى رجل يوحي بالثقة، فوجد قربه المارشال هندنبورغ! وبعد العشاء في تلك الليلة نظر أتاتورك إلى الماريشال وقال له «إنك تستعد يا سيدي المارشال للقيام بهجوم جديد، فهل تستطيع أن تقول لي ما هو الهدف الذي يمكن أن تحققه منه؟».

ونظر المارشال إلى الجنرال الشاب نظرة قال فيها كل شيء، لكن في الحقيقة من دون أن يتفوه بكلمة، بل بدلاً من ذلك مد يده إلى الطاولة المجاورة وقال «هل لك بسيجار يا صاحب السعادة، أم أنك تفضل السيجارة»؟

ومد مصطفى كمال يده إلى علبة السجائر، ثم صمت. لقد عرف أنه لن يستطيع الحصول على المعلومات التي يريدها!

كان الارهاق العقلي قد بدأ يؤثر صحياً في مصطفى كمال، وقد أصيب بعارض في الكلى، دخل على إثره إلى المستشفى في فيينا، ثم ذهب لمزيد من المعالجة في كارلزباد.

كان ذلك في تموز/يوليو 1918

وفي هذه الفترة مات السلطان محمد الخامس، وأصبح وحيد الدين سيد الإمبراطورية، وعمد السلطان الجديد فوراً إلى تقليص صلاحيات أنور باشا. وسارع مصطفى كمال للعودة إلى إسطنبول، حيث قابل السلطان الجديد، وحثه بكل حماس على اتباع سياسة جديدة. لكن الفارق كان كبيراً بين هدوء السلطان ،وثورية مصطفى كمال. هذا يريد تحقيق الأشياء بالوسائل الديبلوماسية، وذاك يريد كل شيء أن يتحقق الآن. وراح مصطفى كمال يتدخل في شؤون الوزارات، كل بمفردها، حتى ضاق به الجميع، واتخذت إسطنبول قراراً جماعياً شبه سري بإبعاده عن المدينة بأي ثمن.

ورأى أنور باشا الفرصة سانحة مرة أخرى للتخلص من مصطفى كمال: إذاً، يرسله إلى جبهة فلسطين، حيث تبدلت الأمور هناك بصورة جذرية. فقد وصل إلى المنطقة أحد أشهر قادة الإنكليز في ذلك الوقت، الجنرال اللنبي، وأخذ يعد العدة للقيام بحملة ضخمة، بعدما وضع في تصرفه كل ما يريد من رجال وعتاد. أما الجبهة التركية فكانت هزيلة وقائمة على الورق فقط. فالحقيقة أنها كانت تتألف فقط من فرق ضربها المرض والمجاعة، ودب فيها اليأس والقنوط، لأن القوات التركية رمت بثقلها الحقيقي في بلاد القفقاز من أجل احتلال تركستان وإيران والهند، وتجاهلت أن الإنكليز كانوا يعدون العدة في جنوب فلسطين من أجل توجيه الضربة القاضية في الوقت المناسب.

وحتى في كانون الأول/ديسمبر من العام السابق، حين حصلت تلك اللحظة التاريخية، وسقطت القدس في يد اللنبي، لم يبدُ أن أنور باشا أعار المسألة الكثير مما تستحق من اهتمام أو حتى من حزن!

وكان حاكم سورية وفلسطين في ذلك الوقت صديق مصطفى كمال الأقرب، أي جمال باشا (الجزار)، الذي كان يعيش في دمشق في قصر من الرخام ويعقد المجالس حوله مثل ملك، وكان يتذمر كلما دعت الضرورة لأن يقوم برحلة إلى «الجبهة». والواقع أن الزيارات إلى الجبهة أخذت تصبح أكثر خطورة. وذات مرة توقف قطار جمال باشا فجأة في محطة صغيرة في قلب الصحراء، ونزل جنوده فوراً لكي يردوا الثوار العرب المهاجمين، لكن الجزار أيقن تماماً آنذاك مدى التدهور الحاصل على الأرض.

وأكثر من ذلك فإن جمال باشا كان يعرف أنه من المستحيل تحقيق أي انتصار بمثل هذا الجيش المريض، الذي أصيب أكثر أفراده بالسل. وهكذا ألغى زيارته إلى الجبهة، وعاد إلى دمشق، إلى بلاطه!

في تلك المرحلة، كان مصطفى كمال في فيينا، لكن طيفه كان يؤرق أنور باشا، نائب القائد العام. وأراد أنور باشا «التخلص» من غريمه الآخر ليمان فون ساندرز، فعرض عليه قيادة الجبهة فرفض الجنرال الألماني. وعندها أبرق أنور باشا إلى القيصر يطلعه على الأمر، فأرسل هذا بدوره أمراً عسكرياً إلى فون ساندرز بقبول القيادة. عندها لم يسع الجنرال إلا القبول وبدأ فوراً الإعداد، ما استطاع، لمواجهة إحدى أكبر الكوارث العسكرية في التاريخ.

كان العسكر الأتراك يفرون بالمئات. وكان من المستحيل أحياناً كثيرة العثور على عتاد أو مؤن. لكن على الرغم من كل شيء، استطاع ليمان فون ساندرز أن يصد هجمات الإنكليز الذين كانوا يفوقونه عدداً بعشرة أضعاف، بل وأن يرغمهم ذات مرة على الانسحاب حتى القدس. وهكذا اضطر اللنبي إلى أن يطلب من قيادته المزيد من الرجال والطائرات والدبابات والمصفحات، وبدأ في 19 أيلول/سبتمبر الهجوم التالي.

ورأى ليمان فون ساندرز نفسه مرغماً على الانتظار من دون حراك. وها هو أنور باشا يخلف وعده مرة أخرى فلا يرسل إليه مؤناً غذائية أو عتاداً أو جنوداً إضافيين أو أدوية أو أطباء. وقد عزلت القوات التركية في سورية تماماً عن بقية العالم، وتركت تدافع عن نفسها ما تستطيع ضد الجنود الإنكليز والثوار العرب.

كانت ظروف القتال مرعبة بالنسبة إلى الأتراك. إذ بالإضافة إلى كل ما ذكرنا، فقد كان مستحيلاً عليهم نقل الأوامر من فرقة إلى أخرى، بسبب معاداة المواطنين لهم، وكان حاملو الأوامر والعداؤون يختفون دون أثر في الكمائن التي ينصبها لهم العرب، وكانت خطوط الهاتف تقطع، والجسور تدمر، بعد ساعات من إصلاحها.

لذلك كان لا بد من قائد جديد للجيش السابع. وكان مصطفى كمال قد عاد آنذاك لتوه إلى إسطنبول، وبدأ يثير أعصاب الوزراء. ووجد أنور باشا الفرصة مناسبة، فأصدر مرسوماً بتعيين مصطفى كمال قائدا للجيش السابع، يتلقى أوامره من السلطان مباشرة. وعندما دخل مصطفى كمال إلى صالة الانتظار في مكتب السلطان رأى أنور باشا يبتسم بسخرية، فقال له «أهنئك يا صديقي. لقد رتبت كل شيء كما تشاء».

عندما وصل مصطفى كمال إلى سورية، ورأى حالة «الجيش» السابع، أصيب بأول انهيار عصبي في حياته! وراح، من فراشه، يصدر الأوامر إلى هذه البقايا الإنسانية التي كانت تشكل ذات يوم جيشاً شجاعاً. وساءت الأمور أكثر عندما وصلت «التعزيزات» التي أرسلها أنور من القفقاز، وكانت عبارة عن صبية في الخامسة عشرة من العمر، لا يفرقون بين الجندية واللهو.

وعشية الهجوم الكبير الذي كان اللنبي ينوي القيام به، نهض مصطفى كمال من فراشه. لكن أنور باشا سحب فوراً «فرقة البنادق» التي كانت آخر فرقة يعتمد عليها ليمان فون ساندرز، الذي كان آنذاك في الناصرة يفاخر بأنه لايزال يملك قواه العقلية.

في 19 أيلول/سبتمبر 1918 كان وادي الأردن مسرحاً لأكثر المعارك دموية وضحايا. فقد نزل الإنكليز بكل قواهم على بقايا الجيش التركي، فيما فرت فرق بكاملها دون أن يدري أحد متى وإلى أين. وانقطع الاتصال بين فون ساندرز وبين الآخرين ، وكان العداؤون الأتراك الذين يحملون الأوامر السرية يسقطون الواحد بعد الأخر بأيدي الثوار العرب.

حتى خطوط التراجع سدت كلها، ولم يبق هناك سوى طريق واحدة عبر وادي الإسكندرون، فراحت القوات التركية تتدافع عبر صخوره وطرقاته الوعرة، تدفعها فكرة واحدة: الخروج من الجحيم، والإعداد لمعركة دمشق.

غير أن اللنبي لم يكن يريد للجيش التركي في فلسطين أي شيء، حتى الفرار، وهكذا راح يقصف القوات المتعبة والمصابة من الجو. وسرعان ما تجمعت فوق الجنود المنسحبين أسراب من الطائرات التي راحت تئز وتقصف فتتكوم تحتها الدماء في الوادي الضيق. لم يكن هناك مفر من تلك المذبحة التي استمرت أربع ساعات. فقد كان كل سرب يفرغ حمولته من القنابل، ثم يعود ليتزود بحمولة أخرى، فيما سرب آخر يفرغ حمولته بدوره.

ويصف الكاتب الألماني هانز فيرومبغن ذلك المشهد بقوله: «... وشيئاً فشيئاً عاد الهدوء يسيطر في الجو وعلى الأرض، فقد اختفى الطيارون أخيراً، لتحل محلهم النسور التي أخذت تحوم فوق الممر ثم تنقض على الجثث. لقد أنجز رجال اللنبي مهمتهم! الانتقام الرهيب من مجزرة غاليبولي».

وفي غضون ذلك كان الكولونيل لورانس (لورانس العرب) ومن معه من الرجال يتفقد بقايا المعارك وهو يبتسم. لكنه لم يستطع إلا أن يتوقف باحترام أمام بقايا «فيلق آسية» الألماني. وقد كتب في مذكراته بعد ذلك «لقد كانوا هناك، على بعد ألفي ميل من وطنهم، ومن دون أمل في أرض غريبة بعيدة، وفي حالة تحطم أكثر الأعصاب قوة. وعلى الرغم من ذلك بقيت وحداتهم صامدة ثابتة، تشق طريقها بهدوء وصمت عبر بحار من العرب والأتراك، والجنود يرفعون رؤوسهم إلى أعلى. وكانوا إذا ما هوجموا توقفوا واتخذوا مواقع لأنفسهم وردوا على النار. لم يكن هناك استعجال. ولا صراخ، ولا تردد. كانوا رائعين».

عند حدود سورية الشمالية، أوقف مصطفى كمال تراجع الزمر العسكرية المشتتة، وأعاد تشكيلها في مواقع قرب حلب. واستطاع الرجل بقوته وحيويته أن يعيد الحياة والنظام إلى الجيش المهزوم ويركزه في موضع الدفاع عن المدينة.

لكن حلب نفسها كانت في حالة من الثورة والغليان ضد الأتراك، ولذا كان عليه أن يسحب خطوط الجبهة أكثر إلى الوراء، فحددها عند سلسلة الجبال على حدود الأناضول. وأصدر أمراً يومياً قال فيه: إن العدو لن يتخطى هذا الخط.

غير أنه في غضون ذلك وصلت أوامر عليا من إسطنبول تقول: ارموا السلاح! ذلك أن بلغارية كانت قد استسلمت للحلفاء الغربيين. وكان الفرنسيون يتقدمون من مقدونية نحو إسطنبول وقد أصبحوا على مسيرة أيام منها!

لكن هذا الأمر لم يَرُقْ للبريطانيين كما يقول لنا فروميغن: هل من الممكن للإنكليز أن يتصوروا الفرنسيين وقد سيطروا على مضائق الدردنيل؟ وأصدر الإنكليز الأوامر إلى أسطولهم قرب الجزر اليونانية بالاستعداد للإبحار. أما أنور باشا فقرر أن يضع كل أوراقه في سلة واحدة، وهكذا جمع ما تبقى من وحدات، ووضعها في مقاومة الزحف الفرنسي. «لكنه فعل ذلك متأخراً فقد كانت الأصوات تتعالى من كل مكان في إسطنبول مطالبة بالاستسلام، وبصورة مفاجئة أيضاً خرج السلطان وحيد الدين عن تحفظه لكي يتسلم بنفسه زمام الأمور. وكان أول ما فعله هو المباشرة في اعتقال كل من وقعت عليه يداه من رجال «تركية الفتاة». وكان أول الهاربين أنور باشا الذي نهبت سيارته الحمراء المكشوفة شوارع إسطنبول نهبا، في الطريق إلى... ألمانية! وأقام السلطان محمد السادس وحيد الدين حكماً ديكتاتورياً حديدياً في البلاد.

وذات يوم تلقى السلطان برقية مطولة من الجنرال مصطفى كمال باشا، وفي البرقية اقتراحات كثيرة، بينها اقتراح بتأليف حكومة جديدة يكون هو ـ مصطفى كمال باشا ـ وزيراً للحربية! وشعر وحيد الدين في قرارة نفسه أنه ليس هناك من هو أفضل من مصطفى كمال لمثل هذا المنصب، لكن في الوقت نفسه كان يعرف أن مثل هذا القرار، في مثل هذا الوقت، لن يكون قراراً حكيماً، فهو من ناحية يطلب من الإنكليز المهادنة والسلام، ومن ناحية أخرى يعرف أنهم يكرهون مصطفى كمال مثل السم، خصوصاً أن اسمه مرتبط بهزيمتهم في غاليبولي.

لا. لن يعينه وزيراً للحربية، لكن في الوقت نفسه لن يقول له ذلك دفعة واحدة، بل سوف يستخدم السلطان كالعادة، حنكته في معالجة الموضوع، إذاً، لا وزارة، لكن أيضاً

لن يخرج مصطفى كمال خالي اليدين من لدن السلطان، ولذا سوف يعينه قائداً لجيش سورية كله، خلفاً للمارشال ليمان فون ساندرز.

بعد أيام تمت عملية التسلم والتسليم في اخنة، في قلب الأناضول، وقال فون ساندرز وهو يؤدي التحية العسكرية «إنني أجد عزاءً واحداً في سوء حظي، وهو أنك الرجل الذي سيخلفني». ومضى القطار بطيئاً بالقائد الألماني، فيما ظل مصطفى كمال وحيداً مع نفسه يتساءل: ما هي الخطوة الآتية؟

• • •

ذلك النهار سمعت أصوات الأبواق الفرنسية والجنود يعبرون «القرن الذهبي» على ذلك الجسر الضيق بين إسطنبول «وغالاتا» و«بييرا». وكاد جسر «غالاتا» الشهير ينوء تحت حمل الكتائب الفرنسية الثقيلة. والحقيقة أن الإنكليز تدبروا الأمر بحيث لا يدخل الفرنسيون إلى المدينة «كفاتحين»، لكنهم دخلوها كمنتصرين في أي حال، وقد خلع الفرنسيون بزاتهم الرثة خلفهم في مقدونية، وها هم يصلون إلى مدينة العجائب في بزات زرقاء فاهية، يشعرون بالزهو فوق هذا الجسر، الذي عبرت عليه ألوف الناس والخلائق منذ زمن طويل. وكانت منطقة الجسر هي الوجه الشعبي للمدينة: هناك يتجمع التجار الصغار من أرمن وأكراد وأتراك ويونانيين، وتزدحم العباءات النسائية السوداء، وتعلو الطرابيش الرفيعة، ويكثر قارئو البخت والحواة والدراويش!

لكن خلال الحرب كان لجسر غالاتا صورة أخرى، صورة السيارات المسرعة تحمل ضباط الحرب والمسؤولين، أما الآن فالصورة القديمة أخذت تعود، مضافاً إليها الضيوف الجدد: الجنود الفرنسيون! ولم ينس التجار أن هؤلاء أمضوا أربع سنوات في القتال، بعيدين عن كل شيء.

واتجهت طوابير الفرنسيين نحو غالاتا وبيرا. وفجأة انتصبت أمامها أقواس النصر، وعلت الزينة جميع الشرفات، وارتفعت هتافات تقول: فيف لافرانس. فلتحيَ فرنسة.

وعند كل زاوية استقبل الفرنسيون بحماس وعطف. ولم يكن قائد الحملة الجنرال فرنشيه داسبراي يحلم بمثل هذا الاستقبال، ربما حتى في باريس. لكن على الجانب

الآخر من جسر غالاتا، كانت الشوارع فارغة والمخازن مغلقة. حتى النوافير في ساحات المساجد انضمت إلى الصمت، فجفت إسطنبول من المياه.

واختفى من أمام المنازل الشرقية القديمة أولئك الحرفيون الماهرون، ولم يبق أثر لصانعي الفخار، وحائكي السجاد، والخياطين الذين جعلوا من الشوارع طوال مئات السنين مخازن لهم. لم يكن هناك أحد. لم يكونوا أمام الجدران ووراءها. حتى «البازار» ذلك السوق الكبير كان صامتاً بمخازنه التي تزيد على ثلاثة آلاف، وشوارعه التي تزيد على الثلاثين، وحيث تموج في الأيام العادية بمئات البشر، ودخان النراجيل يغطي الأجواء.

كان كل شيء صامتاً.

وفي صمت أيضاً كان جامع أيا صوفيا يرتفع فوق رؤوس المنازل الممتدة حتى المياه، وفيما كانت «بيرا» تشع بالضوء سقطت إسطنبول في الظلمة، ومن وراء نوافذ القصور الفخمة كان يمكن رؤية ظلال الراقصين والراقصات احتفالاً «بالمحررين» الجدد، وكانت تسمع آخر الأنغام الآتية من باريس. أما الميناء نفسها فكانت هادئة تعج بالسفن الإنكليزية الراسية في البوسفور.

كان الجو جو مفاوضات. وعلى جسر «غالاتا» وقف جنديان تركيان يتحدثان وهما ينظران إلى المياه تحتهما. قال الأول: «هل سمعت شيئاً حتى الآن عن المفاوضات؟ عن السلام؟».

أجاب الآخر «إن لدى المنتصر الكثير من الوقت يا صديقي. وقبل أي شيء يجب أن يخنقوا ألمانية وبعدها يأتي دورنا».

ـ ماذا حدث «لفيلق آسية الألماني؟ أين هو ليمان فون ساندرز؟»

ـ *«إنهم يطلبون استسلام الألمان»

ـ تلك سوف تكون القشة الأخيرة».

ـ *«فليفعلوا بنا ما يشاؤون لكن ليرفعوا أيديهم عن ضيوفنا ورفاقنا في السلاح. نحن لسنا أوغاداً. لقد قيل لي إن المارشال ليمان في كاديكوي، وإن الوحدات الألمانية تتشكل هناك».

ـ «ترى هل ذهب كل شيء سدى؟ هل هكذا ذهبت كل هذه الدماء التي أهرقت»؟

ـ *«ماذا حدث للرجال الذين أوصلونا إلى هذه الحالة. الرجال الذين كنا نظن أنهم عظماء».

ـ «لقد هربوا جميعاً. وقد فر أنور ورفعت إلى ألمانية، وحوكما هناك، وحكما عليهما بالإعدام إرضاء للإنكليز».

ـ *«وأين هو مصطفى كمال؟»

ـ إنك إذا ذهبت إلى بلدة شيشلي تجد هناك بيتاً ريفياً صغيراً. وتلقى في استقبالك جنرالاً غير عامل، إنساناً عادياً، فرداً عادياً لا يريده أحد. إن مصطفى كمال من أولئك الرجال الذين نفضل أن نخبئهم لأنهم هزموا الإنكليز. لا يا صديقي إسطنبول ليست أفضل مكان للجندي».

ـ* إنهم بحاجة إلى عسكر في جنوب روسية. إن رانغلر ينوي القيام بحملة ضد البلاشفة!

ـ هل تعني أن نبيع أنفسنا كمرتزقة؟

ـ *«طبعاً لا. لكن لم يعد لنا مكان هنا. إن البلاد كلها مليئة بالأعداء».

«هس. إن رغبة صاحب الجلالة هي أن نسمي الإنكليز أصدقاءنا».

ـ *«لم يعد هناك ما نستطيع أن نفعله. لقد انتهت الإمبراطورية العثمانية ودمرت، وقريباً سوف ينقرض العنصر العثماني من الجوع في جبال الأناضول».

على مسافة غير بعيدة من الجسر وفي إحدى القاعات الفخمة من قصر «سيراغليو»، كان رجل طويل نحيل القامة يعتمر طربوشاً داكناً، هو الداماد فريد

صهر السلطان. وكان الداماد يتحدث والسلطان يتظاهر بأنه لا يسمع. وأخيراً قال له فريد باشا: «وفي النهاية أحب أن أبلغك أن جميع المرافئ في آسية الصغرى وعلى البحر الأسود وفي المتوسط قد حاصرها الحلفاء واستولوا عليها. وبالإضافة إلى ذلك فإن محطات السكك الحديدية في الأناضول قد احتلت، وإن صاحب السمو الوزير الكبير عزت باشا يرى في ذلك خرقاً لشروط الهدنة».

ورشق السلطان الداماد بنظرة سامة وقال «دان عزت باشا سوف يستقيل. إنه لم يعد يتمتع بثقتنا، وإنني آمل في تعيين صهري العزيز مكانه في وقت قريب».

وانحنى الداماد فريد طائعا ثم أكمل: «لكن هناك أيضاً مسألة استسلام القوات الألمانية يا صاحب الجلالة».

وقفز السلطان من مقعده: «ليس هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تفرض علينا أن نخرق أصول الضيافة».

وقال الداماد: «لكن المفوضين السامين يصرون على ذلك».

فعاد السلطان يقول: «إياك أن تتفوه بكلمة واحدة حول هذا الموضوع بعد الآن».

ونظر وحيد الدين إلى النقوش الذهبية حوله، وفي المساند الدمشقية التي يتكئ عليها ثم قال للداماد: «إن العالم كله يتكسر، والتيجان تتدحرج. وها نحن نفقد شبه الجزيرة العربية وسورية، وهما أكبر من نصف الإمبراطورية. الخزائن فارغة، والديون تتراكم، ونحن نواجه مستقبلاً مجهولاً. إن ثمة شيئاً واحداً يمكن أن ينقذ تاج بني عثمان، هو نوايا الإنكليز الحسنة.

وبدا أن الداماد فريد قد شعر بالانتعاش لدى سماعه هذا الكلام.

«إن إنكلترة ذات المقام السامي دولة ذات قلب كبير. وإذا ما أظهرنا نواياً حسنةً من جانبنا فإن الإنكليز سوف يحسنون معاملتنا. وهم يعرفون في لندن أن اللوم لا يقع علينا في المآسي الأخيرة». لكن السلطان كان أكثر حزماً: «لن تعلو إرادة فوق إرادتنا. وإذا قدر لإسطنبول أن تصبح غابة من المشانق فليكن ذلك، لأن أصدقاءنا الإنكليز سيعرفون آنذاك أننا جديون، وسوف يكون من المستحسن أن ينضم خدمنا

(ري يانا) إلى جمعية أصدقاء إنكلترة. إننا واقعون في أيدي المنتصرين. وان أي مواطن يستفزهم هو خائن ومتمرد وعدو للخليفة ـ السلطان.

ومضى السلطان يقول وهو يعد حبات سبحته «حافظوا على العرش. حافظوا على العرش».

• • •

... لكن كان هناك من بدأ يستعد للاستيلاء على ذلك العرش. وكان ثمة رجال يحيطون بمصطفى كمال مثل ظله: «الأول عقيد مرهوب الجانب يدعى عارف، والثاني العقيد «عزت» وكان معه في سورية، والثالث هو فوزي باشا رئيس الأركان وأحد أشهر ضباط الجيش.

وكان هؤلاء يجتمعون كل ليلة تقريباً في منزل مصطفى كمال في «شيشلي»، حيث يتحدثون في شيء... ولا يسلم من ألسنتهم أحد. وذات ليلة فيما هم يخرجون من منزل مصطفى كمال إلى شوارع المدينة الخالية قال العقيد عارف ـ وهو ظل أتاتورك ـ للجنرال الذي كان يسير صامتاً: «إنك تخبئ في نفسك شيئاً ما، وإنك تضع متعمداً قناعاً من اللامبالاة، لكننا جميعاً نعرف ذلك ونحاول، أن نحزر عما يدور في خلدك.

إن أصدقاء السلطان يقولون إنك منهم، وأعداؤه يقولون إنك لهم. وأولئك الذين يريدون الأمن والسلام ينتظرون منك أن تتحرك لكي تستولي على السلطة، والآخرون الذين لم يعودوا يضيقون ذرعاً من دون انقلاب، يحلفون هم أيضاً باسم مصطفى كمال. وأنا أقول: إنهم جميعاً أغبياء، لأن الحقيقة هي أنك لا تنتمي إلى أحد منهم، وليس هناك من يعرف حقيقة نواياك. لكنَّ ثمة شيئاً واضحاً بالنسبة إلي، وهو أنك لن تترك الأمور على الحال التي هي فيها اليوم».

ورد مصطفى كمال قائلاً: كيف هي عائشة هذه الأيام؟

وتظاهر العقيد عارف بأنه لم يسمع، ومضى يقول في صوت هادئ: «إلى متى ستستمر الأمور على ما هي عليه، إن علينا القيام بعمل ما، إن لم يكن ضد الحكومة فضد الأجانب وثمة كثيرون سوف يروق لهم أن يقطعوا حناجر جيش الاحتلال كله وأن يشنقوا بعض

أصدقائهم في قصر يلدز على أن يرموا خدم هؤلاء، وفقاً للتقاليد، في غياهب البوسفور. ويجب أن نفعل شيئاً ما. دعنا نشعر مرة أخرى أنا عسكريون. إننا يجب أن نستولي على السلطة ذات يوم، فهل يطيب لك أن يقال إننا تركنا الفرصة تمر».

قطع الاثنان مسافة قصيرة، ثم عادا إلى فيللا الجنرال. وفتح مصطفى كمال الباب وقال لعارف: «ادخل».. وما أن أصبحا في الردهة، حتى راح مصطفى كمال يقول: «إن إقامة إمبراطورية تضم عدة دول لعمل عظيم، لكن لا يمكن لدولة أن تكون قوية حين تكون مؤلفة من عدة شعوب متضاربة المصالح».

بعدها سوف يكمل مصطفى كمال جدياً تلك الطريق الطويلة إلى ذروة السلطة: ليس فقط للقيام «بانقلاب» كما نصحه العقيد عارف، بل من أجل تغيير وجه تركية كله، ولعل قدر تركية، أو قدر الشرق، أن يأتي التغيير من الرياح التي حملها مصطفى كمال معه من سورية ومن سهول «رياق» في البقاع اللبناني.

كان مصطفى كمال، مثل الإسكندر الكبير، مقدونياً، لكنه بعكس الإسكندر يتحدر من عائلة متوسطة الحال، إذ كان والده موظفاً في الجمارك التركية هناك. وقد ذهب الفتى الوسيم إلى المدرسة العسكرية باكراً وهو في الثانية عشرة من العمر قائلاً لأمه، التي سيكون لها تأثير كبير في تكوينه: «لقد ولدت جندياً، وسوف أموت جندياً»، مع أنه مات رجل دولة.

ومنذ أيام سالونيكا في الحقيقة، بدأت مسيرة الرجل إلى السلطة، حين شكل هو ومجموعة من الضباط (بينهم أنور باشا) لجنة عسكرية أرغمت السلطان عبد الحميد على إعادة العمل بالدستور الذي ظل معلقاً نحو ثلاثين عاماً.

ـ ها هو الآن يؤلف، مع مجموعة أخرى من الضباط، الهيئة التي ستقاوم شروط الهدنة، والخطط التي وضعها الحلفاء لإذلال تركية وتقسيمها، ولم يكن هناك أفضل من بلاد الأناضول مسرحاً لهذه النواة، حيث اختمرت بدايات ريح التمرد.

لكن كيف يمكن لمصطفى كمال الوصول إلى الأناضول؟

الحظ يلعب دوره مرة أخرى! فقد قرر الحلفاء المنتصرون أنه من أجل إخماد شعلة التمرد في الأناضول، لا بد من الاستعانة بضابط تركي. ولا بد لمثل هذا الضابط أن يكون شابا. ولا بد إذاً أن يكون مصطفى كمال نفسه. وغادر مصطفى كمال إسطنبول إلى الأناضول وهو يشعر «مثل عصفور فتحت أبواب قفصه». وقبل أن يبحر بقليل، أبلغ أن قوة يونانية قد احتلت منطقة «سميرنا»، بناء على إلحاح المجلس الأعلى المنبثق عن مؤتمر السلام الدولي في باريس. ساعد ذلك أكثر على إثارة حمية الأتراك. وأخيراً رست سفينته في مدينة «سمسون» على ساحل البحر الأسود في 19 أيار/مايو 1919، وما أن وطئت قدماه الأرض حتى كانت الثورة «الكمالية» تنطلق.

فقد وقع الكماليون «إعلان الاستقلال» في جبال أماسيا. وعقد مؤتمر وطني آخر في «أريزوم» عاصمة شرق تركية، حيث تم وضع ميثاق وطني يصر على الحفاظ على «حدود تركية الأمنية» الحالية ولو بالقوة. وأعقب ذلك أيضاً تأليف «لجنة تمثيلية» أصبحت في الواقع أول حكومة ثورية. إذ باسم هذه اللجنة أعلن مصطفى كمال قطع العلاقات مع حكومة السلطان، التي ما لبثت أن استقالت بعد تردد وجيز. وأدى ذلك إلى انتخابات جديدة فاز خلالها الكماليون بأكثرية المجلس، لكن هذا البرلمان لم يعش أكثر من شهرين حيث اقتحمته قوات الحلفاء وأمرت بحله. حينذاك أقام مصطفى كمال برلمانه الخاص فوراً في أنقرة، وأسماه: الجمعية الوطنية العليا، التي أصبحت برئاسته مصدر السلطة السياسية العليا في تحرير تركية.

ومرة أخرى لعبت «العسكرية» دورها في حياة تركية، فقد شن السلطان بمعاونة جيش من اللانظاميين حرباً أهلية ضد القوى الوطنية. ولكي لا يرغم الجيش على مقاتلة مواطنيه، عمد مصطفى كمال وضباطه إلى جمع عدد كبير من المقاتلين اللانظاميين أيضاً، لمواجهة قوات السلطان، كما كانوا حريصين على أن تتحول هذه المجموعات إلى قوة أكبر من الجيش.

لكن في غضون ذلك برزت مشكلة جديدة أمام القوى الوطنية، فقد قرر المجلس الأعلى للقوى الحليفة ما سمي ببنود معاهدة «سيفر»، التي تنص في الواقع على تفكيك الإمبراطورية العثمانية، على أن تتحول تركية إلى مجرد دولة صغيرة تحيط بها مجموعة من الدول الصغيرة ومناطق النفوذ، وعندما أمر الحلفاء القوات اليونانية بالدخول إلى «سميرنا»، بدأت «حرب التحرير» التركية حقاً. وكان اليونانيون أكثر عدداً وأفضل عدة من شراذم الأتراك، ولذا كانوا يأملون بتحقيق انتصار سريع، لكن مصطفى كمال كان من حيث المقدرة الإستراتيجية بمكان. وقد وصف ونستون تشرشل تلك الحملة بقوله «تقدمت الطوابير اليونانية عبر الطرقات الجبلية بأمان، فيما كان الأتراك يفرون بكل ذكاء إلى المناطق الداخلية من الأناضول». وفي تراجع إستراتيجي واقعي وشجاع، ضحى مصطفى كمال بادئ الأمر بعاصمة بني عثمان السابقة، بورما، واستمرت قواته في التراجع حتى منطقة أسكيشهر، حيث استعدت للقيام بحملة معاكسة في الخريف، وفي هذا الوقت خشي الفرنسيون والإيطاليون أيضاً من مغبات السيطرة اليونانية الكاملة على الأناضول، فطلبوا من المجلس الأعلى إظهار بعض «ضبط النفس»، وبالتالي صدرت الأوامر إلى اليونانيين بعدم التقدم أي خطوة أخرى.

واستفاد مصطفى كمال من تراجعه السريع ومن توقف اليونانيين لكي يضع حداً نهائياً لحركات التمرد التي كانت لا تزال قائمة ضده. وفي الوقت نفسه استغل تجمد اليونانيين في منطقة واسعة، فالتقط أنفاسه لكي يعيد تنظيم جيشه، ويقوم بهجوم يحمل فيه اليونانيين على التراجع نحو الساحل. ومن أجل الحصول على ذخيرة وعتاد ومؤن، استخدم مقدرته الديبلوماسية هذه المرة، وأوفد بعثة خاصة إلى روسية السوفياتية. غير أن الروس طلبوا، لقاء هذه المساعدات ، تنازلات مهمة على الحدود في مناطقهم الأرمنية. إلا أن مصطفى كمال رفض الطلب، وأمر قائد قواته في المنطقة الشرقية بالزحف على أرمينية. وفي معركة خاطفة استطاع أن يستعيد «فارس» و«أردهان» إلى حدود تركية الشرقية السابقة. وقد فتح هذا الانتصار الطريق أمام معاهدة موسكو للعام 1921. والتي بموجبها اتفق ستالين ومصطفى كمال على

تسوية المسائل الحدودية بينهما. ونتيجة ذلك بدأ الذهب والمؤن السوفياتية بالتدفق على تركية لمساعدة مصطفى كمال ورفيقه عصمت إينونو في تشكيل جيش حديث.

في هذا الوقت كان اليونانيون قد ضاقوا ذرعاً بدعوة الحلفاء إلى ضبط النفس، وأخذت قواتهم تستعد لتحقيق تقدم جديد عبر سهول الأناضول. وحاولوا بادئ الأمر التقدم تحت شعار الاستطلاع عبر وادي «إينونو»، انطلاقاً من مدينة «بورسة» لكنهم فوجئوا بمقاومة شديدة في الوادي، يقودها عصمت (الذي حمل اسم المعركة فيما بعد). وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا أقل عدداً، فإنهم كانوا أكثر تنظيماً وبأساً واستطاعوا أن يردوا اليونانيين على أعقابهم: هنا سوف يتذوق اليونانيون طعم القوة التركية التي ستظل هاجسهم فيما بعد.

وفي الصيف استأنف اليونانيون بقيادة الملك قسطنطين ـ وهو أول ملك مسيحي يطأ أرض الأناضول منذ الصليبيين ـ الهجوم مجدداً على الأتراك. وهذه المرة خططوا للاستيلاء على أسكيشهر، ليس عبر هجوم مباشر من الغرب، بل بهجوم جانبي من الجنوب، بحيث يحاصرون المدينة ويقطعون اتصالاتها مع أنقرة. وجاء مصطفى كمال من أنقرة على عجل فأمر بإخلاء المدينة فوراً وبانسحاب عام. وقد اختصر تشرشل الوضع بقوله: «لقد حقق اليونانيون نجاحاً استراتيجياً وتكتيكياً. لقد استولوا على الخطوط الحديدية التي يمكن استخدامها في حملة جديدة، لكنهم لم يدمروا الجيش التركي، أو أي جزء منه». فالواقع أن ذلك الجيش ظل يتراجع حتى تجمع على بعد 50 ميلاً من أنقرة، في منطقة نهر «ساكريا»، حيث قرر مصطفى كمال التوقف.

واستصدر مصطفى كمال مرسوماً خاصاً من البرلمان، راح بموجبه يجمع كل ما استطاع من ذخيرة وعتاد من أهل الأناضول. وأمر الناس بأن يسلموا إلى الجيش كل ما هو صالح للاستعمال في الأهداف العسكرية. وفي غضون أيام جمع نحو 40 في المئة مما يحتاجه من الطعام والثياب والوقود، كذلك صادر 10 في المئة من عربات الخيول والثيران و20 في المئة من البغال والخيل والحمير. وأجرى إحصاءً فورياً لجميع مصانع الخناجر والسيوف والحراب، كما أقام مصانع جديدة لهذا الغرض، وأقام في الوقت

نفسه مراكز لإصلاح الأسلحة. بكلام آخر، لقد رأى أن الحرب الشاملة قادمة، ومن أجل ذلك عمد إلى تعبئة السكان جميعاً بمن فيهم النساء. وراحت شحنات الأسلحة والذخيرة تصل إليه من جميع أنحاء الأناضول، مخبأة تحت التبن والعشب، على عربات تجرها الثيران، قاطعة الجبال والوديان والسهول.

لقد كان أمام الأتراك ثلاثة أسابيع فقط للاستعداد من أجل المعركة الحاسمة في «ساكريا»، وهي معركة استمرت 22 ليلة ونهاراً أو هي الأطول في التاريخ بيوم واحد، حسب تعبير مصطفى كمال. ولقد اختار ساحة للمعركة موقعاً دفاعياً ممتازاً على بعد 40 ميلاً من أنقرة، على مقربة من نهر كبير، ويحيط به رافدان بحيث تغمر المياه كل الأراضي المحيطة. وتخلى اليونانيون عن خطتهم الأولية بالمهاجمة من الجنوب، فأقاموا جسورا سريعة وعادوا إلى الهجوم المباشر.. حيث كانت القوات التركية في انتظارهم! ويقال: إن الأتراك حاربوا آنذاك أفضل مما حاربوا في أي وقت مضى.

أمام هذا الواقع أمرت أثينا قواتها بالانسحاب الكامل، تاركة خلفها كما يقول تشرشل، للمرة الأخيرة ذلك الأمل الكبير بأن تقيم لنفسها إمبراطورية في آسية.